

كتاب
العربية

الترجمة (٢)

إيلينا ماروشياكوفا

وفاسلين بوبوف

arabiccivilization2.blogspot.com

Amly

تاريخ الفجر

مراجعة

د. أحمد البنيان

ترجمة

محمد المغربي

١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تاريخ الفجر

الفجر في الدولة العثمانية

كتاب

العربية

الترجمة (٢)

ح) المجلة العربية ، ١٤٣١ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

ماروشياكوف ، إيلينا

تاريخ الفجر . / إيلينا ماروشياكوف ؛ فاسلين بوبوف ؛ محمد

المغربي . - الرياض ، ١٤٣١ هـ

١٥٢ ص ؛ ٢١×١٤ سم

ردمك : ٢-٠-١٤١-٩٠١٤١-٦٠٣-٩٧٨

١- الفجر أ. بوبوف ، فاسلين (مؤلف مشترك) ب. المغربي ، محمد

(مترجم) ج. العنوان

١٤٣١ / ٧٤٧

ديوي ٣٠١.٤٥١١١٤٧٩

رقم الإيداع : ١٤٣١ / ٧٤٧

ردمك : ٢-٠-١٤١-٩٠١٤١-٦٠٣-٩٧٨

جميع حقوق الطبع محفوظة، غير مسموح بطبع أي جزء من أجزاء هذا الكتاب، أو اختزانه في أي نظام لاختزان المعلومات واسترجاعها، أو نقله على أية هيئة أو بأية وسيلة سواء كانت إلكترونية أو شرائط ممغنطة أو ميكانيكية، أو استنساخاً، أو تسجيلاً، أو غيرها إلا في حالات الاقتباس المحدودة بغرض الدراسة مع وجوب ذكر المصدر.

إيلينا ماروشياكوفا وفاسلين بوبوف

تاريخ الفجر

الفجر في الدولة العثمانية

ترجمة

محمد المغربي

مراجعة

د. أحمد البنيان

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م



كتاب
العربية

الترجمة (٣)

رئيس التحرير

د. عثمان الصيني

لجنة سلسلة الترجمة

د. أحمد البنيان

د. بندر الهذال

أ. عبدالله بخيت

د. عبدالله الحاج

د. فالح العجمي

الأسعار: ١٠ ريالاً أو ما يعادلها

www.arabicmagazine.com

لمراسلة المجلة على الإنترنت

info@arabicmagazine.com

الرياض: طريق صلاح الدين الأيوبي (الستين) - شارع المنفلوطي

تليفون: 966-1-4778990 فاكس: 966-1-4766464

ص.ب 5973 الرياض 11432

المحتويات

□ مقدمة الترجمة العربية..... ٧

- مقدمة الكتاب ١٢

□ الفصل الأول:

- البلقان الوطن الثاني للفجر ١٦

□ الفصل الثاني:

- بداية هجرات الفجر ٢٢
- المرحلة الأولى من الهجرة ٢٤
- وصول الفجر إلى إقليم البلقان ٢٦
- الفجر في ظل الإمبراطورية البيزنطية ٣٠
- الفجر في ولايات البلقان ٣٥
- الفجر عشية الغزو العثماني ٣٩

□ الفصل الثالث:

- شروق مجد الأمبراطورية العثمانية ٤٢
- الغزو العثماني للبلقان ٤٢
- الحروب العثمانية وبناء الإمبراطورية ٤٣
- المصادر التاريخية حول وجود الفجر في الإمبراطورية العثمانية . ٤٦
- الفجر في سجلات الضرائب ٤٨
- الفجر مسيحيون ومسلمون ٥٢

- ماذا كانت أسماء الفجر ٥٤
- غجر السنجق ٦٢
- توطين الفجر في ظل الإمبراطورية العثمانية ٧٠
- كيف اكتسب الفجر عيشتهم ٧٦
- الحالة المدنية للفجر ٨٤
- هجرة الفجر داخل منطقة البلقان ٨٧

□ الفصل الرابع :

- انحذار الإمبراطورية العثمانية وغروبها ٩٠
- مصادر تاريخية عن الفجر ٩٣
- الفجر وعصر الإصلاح ٩٩
- الفجر الرحّل ١٠٧
- الفجر والمؤسسات الدينية ١١٨
- بداية الخلاص للفجر ١٢٣
- أول شاعرة غجرية رومانية ١٣٢
- عبودية الفجر ١٣٨
- هجرة الفجر ١٤١

□ الفصل الخامس :

- نهاية الإمبراطورية العثمانية ١٤٦
- رعب كوسوفو ١٤٧
- ثبت بالأسماء والمصطلحات ١٥٠

مقدمة - الترجمة العربية

كُنَّا نبحث في المعاجم عن كلمة (غجر) ، فلم نجد لها مكاناً يذكر ، إذ تفرقت مثل تفرق أصحابها ، فهم قوم عابرون في المكان والتاريخ ، كما ضاعت الكلمة لتعدد مسميات أصحابها ، فهم : (الدوم ، والزط ، والسبابجة ، والقرباط ، والكاولية ، والنور ، والصلبي ...) ، وتلك حال قوم يعيشون في أماكن متعددة ومتلونة ، ويمتهنون مهناً حرفية عديدة ، أما لغتهم ، فهي لغة الشعوب التي يعيشون بجانبها ، ، أو بالقرب منها ، ففي بلاد العرب عرفت لغتهم بـ «العصفورية ، والدومارية» ، وهي لغة شفوية غير مكتوبة ، وتبدو كأنها خليط من الفارسية والتركية والهندية والعربية (المزيني ، الغجر في بلاد العرب) ، وهي لغة شبه مندثرة لتفرق أهلها في هذه البلاد ، أما في البلدان الأخرى ، فنجد أن بعض الباحثين ، ومنهم من خطأ هذا الكتاب (إيلينا وفاسلين) يقولون إن لغات الغجر قد انقسمت إلى فرعين منفصلين هما :

- متحدثون باللهجة : بن ، وهم مجموعة «الروم» .

- ومتحدثون باللهجة : فن ، وهم مجموعة «اللوم» ومعهم أيضاً

«الروم» .

على أن هذه اللهجات تختلط بعضها مع بعض إذا ما اختلط أهلها شمالاً أو جنوباً .

إننا ونحن ننظر إلى بعض الكتب التي سجلت شيئاً عنهم ، أو البحوث التي كتبت عن تاريخهم ، نجد أن اللاحق منهم يتبع السابق ، وتلك حال من يبحث في : التاريخ الشفوي ، إذ تتلقفه الألسن بلا دليل يذكر ، ولذا

نجد أن بعض الباحثين يوفر على ذاته، فيتجه لما دون عنهم، ويسجله، ولذا، فإن تأريخهم كان قد دُون بواسطة الرحالة الأوروبيين، إذ وجدوا صعوبة في تدوينه، مما حدا بهم الأمر إلى التوجه للبحث عن الوثائق المدونة خاصة لدى الدولة العثمانية، فيأخذون منها الأسماء، والضرائب التي كانت تفرض عليهم، وأماكن تنقلاتهم... ومن هنا، فإن تأريخ (الفجر) يشوبه شيء من القلق، إذا ما توافرت المصادر الأساس.

إننا نعتقد أن التأريخ لا يتجه إلا لتدوين من كان له أثر في الواقع الحياتي، (والفجر) بطبيعتهم، وواقع حياتهم لم يسهموا في صنع التأريخ كباقي الفئات والقوميات الأخرى التي عايشتها، أو عاشت معها، إلا أنه قد يستعان بهم، وعند هذه الحال يسمون بـ«المرتزقة»، وهؤلاء لا مكان لهم أيضاً، فهم كالأجير، الذي يأخذ أجره، ثم يعود لمكانه.

إنهم متفرقون، فتبعثر تأريخهم كما تبعثروا، ولذا نجد أن بعض الأساطير تذكر أن دعوة آدم -عليه السلام- تلك التي لحقت بابنه (قابيل)، والدعاء عليه بالشتات والترحال وعدم الاستقرار قد لحقت بهؤلاء، ولذا يقال إنهم من أولاد (قابيل)، وأنهم في الأساس كانوا قبائل جمعت على شواطئ (الهندوس) ثم تفرقوا، وأن الأحفاد قد امتهنوا المهن الوضيعة، وذلك خلاف جدودهم الذين عرفوا أسرار البرونز، وأتقنوا صنع المعادن.

إن ما يدعو إلى افتقار المعلومة والكتاب عن هؤلاء عدم وجود تأريخ يدون لهم حياتهم، ولذلك كان تراثهم شفهيًا، ينتقل من الأب إلى الابن، ولا يمكن معرفة شيء عنهم سوى ما يقبل الفجري الكشف عنه،

ولذلك يبدو أن أبناءهم كانوا ينفرون من تدوين أخبارهم، ولذا، فإن أي كتاب يتحدث عنهم، وفي أي مكان من العالم سيغني عن الكتب الأخرى التي تتحدث عنهم في جزء آخر من هذا العالم.

إن هذا الكتاب الذي نشره مترجماً إلى العربية نشعر أنه قد يضيف شيئاً لتأريخ (الفجر) الذين نعرفهم في بلادنا العربية بأسماء متعددة، وهو تأريخ ينسحب على من يعيش في هذه البلاد أو البلدان الأخرى، إذ يركز الضوء على ما له علاقة بهم أيام الدولة العثمانية التي استولت على معظم أجزاء الكرة أيام زهوها وقوتها، وكان (الفجر) جزءاً من الأناس الذين عاشوا في فلکها، ولذا نجد أن المؤلفتين اعتمدتا على: (الوثائق العثمانية) التي دوّنت الأسماء، والمهن، والأماكن، وعلاقتهم بالدولة، وعلاقة الدولة بهم، كما أن هذا الكتاب يكشف شيئاً عن بعض المعلومات السكانية التي تتعلق (بالفجر) في ظل هذه الإمبراطورية.

إنه كتاب يعتمد على الوثائق الرسمية، لكنه مع ذلك يفصح أيضاً عن: عدم قدرة هذه الوثائق على كشف الحقيقة التاريخية الكاملة... وهذا ما أكدنا عليه سابقاً، وهو أن تأريخهم شفهي، يتداول عبر الأفواه، فضاء ضياع هذه الأفواه.

إننا نعتقد أن هذا الكتاب، ومع اعتراف من خطه بصعوبة وجود المعلومة الصحيحة سيكون إضافة طيبة للمكتبة العربية على الأيام تظهر لنا باحثاً عربياً جاداً يكشف لنا تأريخ هؤلاء القوم، فالحياة لا تطيب إلا بتدوينها.

المجلة العربية

الفجر في الإمبراطورية العثمانية

مقدمة الكتاب

يعود الوجود الروماني -متمثلاً في البلقان- كعنصر من الجزء الأوروبي للإمبراطورية العثمانية إلى قرون مضت ولم يكن مصادفة أن يطلق على هذا الإقليم -غالباً- الوطن الثاني للفجر، إذ من هذا الإقليم انطلق الفجر باتجاه الغرب حاملين معهم نماذج الثقافة البلقانية وعاداتهم.

ومن المحال أن نقوم بشرح أو تفسير خصائص إقليم البلقان دون أن نضع في اعتبارنا دور الإمبراطورية العثمانية الذي كان له تأثير عميق طوال خمسة قرون على التطور الثقافي والتاريخي للإقليم، بما في ذلك الدول التي قامت في القرنين التاسع عشر والعشرين والتي بنت عقيدتها الفكرية على مناهضة هذه الإمبراطورية.

وهذا الكتاب يلقي الضوء على شعب البلقان حيث تركزت نسبة كبيرة من الفجر في إطار الإمبراطورية العثمانية داخل إقليم البلقان، وهناك دليل ساطع على ذلك وهذا أول كتاب يُنشر عن تاريخ، وعرقية البنية الثقافية والاجتماعية للفجر في إطار الصورة العرقية العامة في الدولة العثمانية استناداً على المصادر الوثائقية ومن أهمها، سجلات الضرائب المفصلة، والقوانين الخاصة، وسجلات الحرفيين «النقابات» ووثائق المحاكم، كما ضم الكتاب في عرضه مذكرات دونها الرحالة الأجانب في كتاباتهم عن الفجر، وعن التنظيم الاجتماعي السائد بينهم، وطرق معيشتهم وثقافتهم كل ذلك تم استطلاعه، فشمّل كما كبيراً من المعلومات المجهولة

التي تلقي الضوء على المجتمعات الرومانية التاريخية المبكرة.
فهذا الكتاب يسهم بنصيب في عرض تاريخ شعب البلقان، كما أن
وجود (نص بعدي) لهذا الكتاب يساعد القارئ على فهم الوضع الفريد
لروما في يوغوسلافيا السابقة. ليرأى له ما خلفته التركة العثمانية من
آثار واضحة في المعاناة التي يعيشها الفجر في يوغوسلافيا السابقة حتى
اليوم.

الفصل الأول

البلقان – الوطن الثاني للفجر

غالبا ما يصرح الخبراء بشؤون الفجر أن إقليم البلقان هو «الوطن الثاني للفجر» ويرتبون ويصنفون «اللهجة الرومانية» - لغة الفجر - على أنها لغة هندية وهذا التأكيد على الدور المهم الذي لعبته أرض البلقان في تشكيل تاريخ وثقافة ولغة الفجر ليس مجرد تعبير متفق عليه فقط، وإنما هو تعبير مبنى على بحث علمي جاد. ومن خلال رحلتهم من أقصى الهند إلى وسط أوروبا وغربها، استقر الفجر «الرومانيون» في شبه جزيرة البلقان لقرون عديدة، وكما سنناقش لاحقا فهناك نظريات عديدة حول وقت وصولهم لأرض البلقان، تتراوح فيما بين القرنين التاسع إلى الحادي عشر الميلادي، ولكن حيث إنهم بدؤوا دخول غرب أوروبا خلال القرن الخامس عشر فقط، فلا بد أنهم عاشوا في إقليم البلقان مدة خمسة قرون على الأقل، وكان لذلك تأثير واضح على تطوير الخصائص الرئيسية للفجر كجماعة بشرية وعلى ثقافتهم بما في ذلك اللغة بالإضافة إلى أن أعدادا كبيرة من الفجر قد بقيت في البلقان حيث أقاموا فوق أرض الإمبراطورية العثمانية وولاياتها خاصة عند مراكز نهر الدانوب لمولدافيا وفالاتشيا، ومن ثم في الولايات التي أقيمت داخل حدود الإمبراطورية السابقة للدولة العثمانية، وهي ولايات ظلت على ارتباط بتلك الإمبراطورية، أما في العصور الحديثة فقد هاجرت أعداد كبيرة منهم عبر العالم بما في ذلك ما يطلق عليه الغزو الكبير لطارقي النحاس «الكالديراري» خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، مشكلة موجات الهجرة من يوغوسلافيا السابقة في ستينيات القرن العشرين

حتى الثمانينيات ، كالهجرة إلى رومانيا التي أعقبت تغيرات عام ١٩٨٩ في أوروبا الشرقية وتلك التي يمثلها اللاجئين في البوسنة وكوسوفو ، وقد حملوا معهم آثارا ملحوظة للتلاقح الثقافي واللغوي مع الشعوب الأخرى التي سيطرت على إقليم البلقان .

ومن المستحيل أن نقوم بشرح أو تفسير خصائص إقليم البلقان دون أن نضع في اعتبارنا دور الإمبراطورية العثمانية الذي كان له تأثير عميق طوال خمسة قرون هيمنت فيها على إقليم البلقان وعلى أشكال التطور الثقافي والتاريخي هناك ، ويضم إلى ذلك ولايات أقيمت خلال القرنين ، التاسع عشر والعشرين ، أسست عقيدتها الفكرية على مناهضة هذه الإمبراطورية عند انعتاقها من إطارها السياسي محاولة — ليس بنجاح دائم — الانفصال عن تقاليدھا الثقافية .

وسوف يركز هذا الكتاب على الفجر الذين كانوا يعيشون في منطقة البلقان — كما سيتضح فيما بعد — حيث كانت النسبة الكبيرة من الفجر أثناء الحكم العثماني تتركز هناك ، ومن هنا كان وجود دلائل تاريخية لها اعتبارها في هذا الإقليم ذات علاقة وثيقة بالفجر ، والأكثر من ذلك كان للمقاطعات العثمانية — في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا حالات إدارية مختلفة ، وعليه كان لها بنية اجتماعية وسياسية مغايرة أيضا أدت إلى ظهور أحوال مختلفة عاش في ظلها الفجر تختلف عن تلك التي سادت البلقان ، وأخيرا وليس بآخر على المرء أن يتذكر — بعكس ما هو موجود في البلقان — أن العدد الصغير نسبياً من أولئك الرُّحَل الحرفيين في المقاطعات الأخرى لم يكونوا في عداد «الفئة الرومانية» ، ولكل تلك

الأسباب قررنا في دراستنا الحالية أن نسلط الضوء على الغجر المستقرين في منطقة البلقان خلال حكم الإمبراطورية العثمانية .
كما نركز في كتابنا على تقديم المادة العلمية من مصادرها بدلا من تقديم رؤيتنا الشخصية ويستهدف الكتاب - بقدر الإمكان - تقديم صورة حقيقية لحياة الغجر في ذلك الإقليم خلال تلك الفترة ، وقد قادتنا الكثير من المحاولات السابقة التي قام بها الآخرون لتناول هذا الموضوع بالأخص ثم لبعض المطبوعات العامة حول مسألة الغجر إلى الإيمان بأن اختلاف رؤية المؤلفين قد تؤدي لتشويه الحقائق ، خاصة إذا ما حدث سوء فهم أو تقصير للدراسة ، إذ لم يكن الغجر في إقليم البلقان معزولين عن البيئة الثقافية والاجتماعية المحيطة ، بل كانوا - على العكس من ذلك - جزءا متكاملا مع تلك البيئة ومن ثم تأثروا بعمق بثقافات الجماعات المتعددة داخل الإقليم ، وكانت الإمبراطورية العثمانية عاملا أساسيا في تطوير جماعات الغجر ، وتعد دراسة وفهم هذه النقطة بالذات هدفا أوليا في إصدارنا لهذا الكتاب .

ويشير أي مدخل لتاريخ الغجر في ظل الإمبراطورية العثمانية بعضا من المشكلات الجادة والتي لا يمكن تجنبها في شرح الواقع الاجتماعي والثقافي والتاريخي غير المألوف - عامة - للقارئ الأوروبي ، وعلى أي حال فإن تقديم شرح مفصل لكل المصطلحات العثمانية الصادرة عن أجهزة الإدارة في الإمبراطورية ، والنظام الاجتماعي والمؤسسات الدينية ، والالتزامات الضريبية والرتب العسكرية مع تطورها خلال خمسة قرون سيؤدي لظهور كتاب مستقل عن الإمبراطورية العثمانية وليس هناك نقص الآن

في توافر مثل هذه الكتب ، وقد عملنا على أن نستخدم الكثير من تلك المصطلحات العثمانية الأصلية مع الكلمات المكتوبة بالإنجليزية حسب نطقها بلغتها الأصلية حيثما أمكن ، وقدما شروحا قصيرة لذلك في متن الكتاب بينما طمحنا في الحالات الأخرى الباقية أن يتضح المعنى أمام القارئ من خلال السياق الذي وردت فيه تلك المصطلحات ، أما أولئك القراء المهتمون بالمعاني الدقيقة فيمكنهم الرجوع إلى المعاجم وإلى كتب الأدلة التاريخية المتخصصة في الإمبراطورية العثمانية ، وتحتوي قائمة المراجع آخر الكتاب على كتب شاملة عن هذا الموضوع . وقد ساهم زميلنا وصديقنا دونالد كيتريك في إبداع هذا الكتاب بنسبة كبيرة ، إذ ساعد منذ البداية بالأسئلة والتعليقات والملاحظات المهمة ، مع إمدادنا بأدبيات الموضوع المعروفة علمياً ، التي كان من المحال العثور عليها في بلغاريا ، ثم قام بتحرير الترجمة الإنجليزية ، ونحن نود أن نعبر عن شكرنا الخالص والعميق لتلك المساعدة القيمة .

كما نوجه شكرنا - أيضاً لمت ترجمة هذا الكتاب أولجا أبو ستولوفا التي بذلت جهداً كبيراً في تيسيره للقراء الناطقين باللغة الإنجليزية ، ونشكر استرد فورن هيلينج في مركز دراسات غجر أوروبا الشرقية في باريس لعنايتها باختيار وسائل الإيضاح اللازمة للكتاب .

وقد وضعنا الألفاظ الأجنبية في حروف مائلة عند ورودها لأول مرة وإذا لم يتم شرحها وسط النص أو لو وردت مرات متوالية ، فسوف يجدها القارئ في القاموس الملحق بالكتاب ، أما أسماء الأماكن التي وضع معها علامة فلها أسماء حديثة ذكرناها في نهاية الملحق .

الفصل الثاني

بداية هجرات الفجر

ما زال العديد من الأسئلة التي لا تجد إجابة تواجه الدراسات العلمية فيما يتعلق بأصل الفجر الرومانيين، مثل أسباب هجرة أجدادهم من الهند وتاريخ رحيلهم، والمراحل المبكرة لهجرتهم نحو أوروبا... إذ تعدد التقديرات المفسرة لبدايات هجراتهم من الهند وتوزعهم في شتى أنحاء العالم بصورة كبيرة تتراوح من القرن الخامس وحتى القرن الخامس عشر، والأساس الذي يعود إليه التاريخ المبكر لذلك هو الدليل المعروف المأخوذ من كتابات المؤرخ العربي حمزة الأصفهاني في القرن التاسع ثم من الشاعر الفارسي الفردوسي في كتابه «ملوك عام ١٠١١»، وكلا الكاتبين يعيدان شرح صور مختلفة لقصة الشاه الفارسي جهرام جورجيا (٣٨-٤٢٠) وفي القصة نقراً «أن أحد ملوك الهند أرسل - كما يقال - للشاه مجموعة كبيرة من الموسيقيين (من يسمون الروي أو اللوري) مع عائلاتهم، وهم من غادر معظمهم في تاريخ لاحق البلد وجالوا عبر العالم ووفقاً للعديد من المؤلفات فإن الأحداث التي تم سردها - رغم أنها نُقلت في شكل أسطوري - قد تأصلت في الحقائق التاريخية ويمكن تناولها للإشارة إلى مراحل أساسية في هجرة الفجر.

وترتبط مشكلة تحديد بداية هجراتهم مباشرة بالمحاولات التي استهدفت استبيان أسباب تلك التحركات من خلال ارتباطها بأحداث تاريخية، وهناك نظريات متعددة لذلك لكن الاعتقاد السائد هو أن ما تم لم يكن حدثاً واحداً فقط وإنما تم خلال عملية طويلة دامت عدة قرون، عملية غادر فيها أجداد أولئك الفجر (من طبقات مختلفة - بشمال غرب الهند

-أساسا- ومن أقاليم أخرى ولأسباب متعددة (موطنهم الأصلي في جماعات صغيرة مستهدفين المضي قدما في الطريق الطويل نحو أوروبا . وكان من المعتقد في الغالب أن عملية الهجرة هذه قد حفزتها غزوات قبائل الهون البيضاء الإيثالية من وسط آسيا خلال القرنين الخامس والسادس والكوارث الخطيرة التي سببتها تلك الغزوات للمجتمع الهندي، بما في ذلك سقوط حكم أسرة «جوبتا» وتفكك الإمبراطورية مع انهيار المدن وانحدار الزراعة وانتشار المجاعات والأوبئة، كما كان الغزو العربي للهند خلال القرنين السابع والثامن -خاصة في إقليم السند- فترة أزمات اجتماعية واقتصادية نتج عنها هجرات جماعية كبيرة وقد استثارت غزوات أخرى لاحقة - يطرحها بعض الباحثين- هجرات لاحقة قام بها أسلاف الفجر، منها على سبيل المثال التي قام بها محمود الغزنوي، في القرن الحادي عشر ومحمد غور في القرن الثاني عشر وحتى غزو تيمور لنك (في بداية القرن الخامس عشر) تعد كلها متأخرة حيث إن الفجر -حتى ذلك الحين- كانوا قد ظهرُوا في السجلات التاريخية البيزنطية وأوروبا، ورغم ذلك يمكن للمرء أن يتقبل فكرة وجود هجرات أخرى متأخرة من الهند، وهو فرض لا يتعارض مع تاريخ المنطقة، وعلى سبيل المثال : فإن المجموعة التي تسمى هيسارسكي بارياء- تصنف حالياً على أنها استقرت في آسيا الوسطى خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر.

٢-١ المرحلة الأولى من الهجرة

من الأمور المستحيلة إعداد تقويم زمني دقيق لموجات هذه الهجرة أو مخطط تفصيلي للطرق التي سلكها الفجر خلال رحيلهم من الهند، إنما يعتمد الباحثون بشكل رئيسي على نتائج الدراسات اللغوية، وعلى تطور لغة الفجر، ومؤشرات البيئة الاقتصادية والثقافية الأجنبية في انعكاسها على مفردات لغوية معينة وعلى التغيرات التي تطرأ على اللغة، فهذه - فقط - يمكنها أن تحدد الطرق الرئيسية للهجرة ومراحلها.

وغالبية اللغويين يتفقون على أن لغة الفجر بدأت في القرن السادس أو السابع، في حين أنها حتى القرنين الثامن والتاسع فصاعدا نمت بوصفها لغة مستقلة في ظل تأثير لسان الأغلبية السائد في البلاد (الفارسية - الأرمنية - اليونانية) وقد تجولوا لقرون عديدة عبر الأرض المعروفة اليوم بباكستان وأفغانستان وإيران وحتى جنوب بحر قزوين، وقد انقسم الفجر ولغاتهم إلى فرعين منفصلين (متحدثين باللهجتين المسماتين «بن وفن» على الترتيب بناء على تصنيف كلمة «أخت» لديهم). وهذا يحدد مرحلة مهمة في تطور لغتهم ومجتمعهم ككل، وحال وصولهم إلى شمال أرض العراق «ميزوبوتاميا» وإلى الحدود الشرقية للإمبراطورية البيزنطية مع نهاية القرن العاشر وبداية الحادي عشر، انقسم الفجر إلى ثلاث موجات للهجرة، وهي مجموعة «الروم» الناطقة بلهجة «البن» التي اتخذت الطريق الجنوبي أو استقرت في الشرق الأوسط - ومجموعتان ناطقتان بلهجة «الفن» هما «اللوم» - التي استخدمت الطريق الشمالي، و«الروم» التي اتخذت الطريق الغربي واتجهت المجموعة الأولى تجاه

الجنوب الغربي واستقرت بالتدريج في سوريا وفلسطين ومنها شقت مجموعة طريقها إلى مصر وشمال إفريقيا ، ومن المتصور أيضا - أنه خلال فترة السيادة العربية لشبه جزيرة أيبيريا - إسبانيا - أن الفجر الراحلين من هذه المجموعة ووصلوا المنطقة من خلال الطريق المسمى «بشمال إفريقيا» قد اختلطوا مع مجموعات الفجر التي وصلت إسبانيا من الشمال ، رغم أن معظم الكتاب يدحضون فكرة هذا الطريق لهجرة الفجر - وتوجهت المجموعة الثانية نحو الشمال واستقرت في البلاد الواقعة جنوب القوقاز - وتمثلها أساسا أرمينيا وجورجيا الآن - ووفقا لبعض الفروض انتقلت أقسام من تلك المجموعات إلى مناطق أبعد عبر الطريق الشمالي (خلال جبال القوقاز والشواطئ الشمالية للبحر الأسود) حتى وصلوا إلى أرض رومانيا الحالية وأرض البلقان ووسط وغرب أوروبا ، لكن أغلب الباحثين يشكّون في هذا الطريق بسبب نقص الدلائل التاريخية واللغوية على ذلك في حين قصدت المجموعة الثالثة - وهي أكبر المجموعات والناطق بلهجة الفن - والمسماة مجموعة الروم الطريق الغربي نحو آسيا الصغرى وبلاد البلقان ، ومنها تحركت إلى وسط وغرب أوروبا ، وقد استقر أولئك الفجر لقرون عديدة ضمن حدود الإمبراطورية البيزنطية بصورة شبه دائمة والتي شملت - في ذلك الوقت - مناطق شاسعة من آسيا الصغرى والبلقان .

٢-٢ وصول الفجر إلى إقليم البلقان

يعود الدليل المبكر الموثوق به فيما يتعلق بوجود الفجر في منطقة البلقان إلى عصر الإمبراطورية البيزنطية والأكثر دقة يعود إلى القرون التاسع والعاشر والحادي عشر، وقد قبل معظم خبراء الموضوع حتى وقتنا الحاضر نظرية عالم اللغة المعروف فرانز ميكلوسيتش بأن أول ذكر محدد لوجود الفجر في ظل بيزنطة جاء في كتاب «حياة القديس جورج الأثوسي» الذي مات عام ١٠٦٥، وقد كُتبت سيرته حوالي العام ١١٠٠م، حيث تقول: إنه في عام ١٠٥٤ خلال حكم الإمبراطور قسطنطين التاسع مونوماكوس، قد وصل إلى القسطنطينية العديد من قبائل الفجر «الشرقيين» قادمين من منطقة ساماريا، وليس لهم أعمال ثابتة، يتجولون حول المدينة، وقد اشتهروا بمهارات الاستبصار «التنجيم» والأعمال السحرية. وخلال هذا العصر اخترقت الحيوانات المتوحشة حدائق الإمبراطورية ولهذا طلب الإمبراطور من الفجر أن يخلصوه من تلك الحيوانات، فقدم الفجر لحما مسموما لها فماتت. هنا دعاهم الإمبراطور - متأثرا بفاعلية سحرهم - لدخول قصره وطلب منهم تكرار عملهم السحري بتطبيقه على كلبه. إلا أن القديس جورج الأثوسي - الذي كان حاضر المشهد - قام برسم علامة الصليب على اللحم المسموم وهكذا تم إنقاذ الكلب في حين قام الإمبراطور بطرد الفجر من القصر.

وتميل غالبية الخبراء في هذا المجال إلى قبول التفسير الذي يحيل الاسم تسيجاني «*TSigani*» - ومشتقاته الصوتية والذي أُطلق على الفجر في أوروبا الشرقية - إلى كلمات من قبل أتسنگاني *ATSINGANI*

أو أتسנקاني ATSIN KANI وكلاهما قد ذكر في المصادر التاريخية لتلك الفترة، وهناك كذلك نظريات معارضة حول أصل ذلك الاسم تقول إنه مشتق - مثلاً - من كلمة أسينكار ASINKAR التي تعني الحداد في بعض اللهجات الفارسية، أو من مصطلح استخدم خلال القرن العاشر في بيزنطة من اسم نهر أسطوري في الهند موطن الفجر، أو من الاسم الموسيقي travelling cingari وتعني الراقص أو الموسيقي الجوال في الهند، أو هو مأخوذ مباشرة من الكلمة اليونانية في العصور الوسطى أتسنگانوي ATSINKANOI وتعني الذي لايلمس، وعموماً فالمشكلة الحقيقية تكمن في سؤال آخر، هو ماذا تعني كلمة أتسنگاني أو أتسנקاني؟ وهو سؤال لم يحظ بعد بإجابة محددة، وبسبب الطبيعة الملتبسة والمتشظية للمصادر التاريخية لهذه الفترة، أصبح من المعتاد الظن بأن هذا الاسم يشير إلى المانويين أو إلى الهراطقة المتورطين في أعمال التنجيم وقراءة الكف والسحر والنفث ومن ثم انتقل الاسم - بسبب ممارساتهم الشبيهة - إلى أجداد أولئك الفجر.

ويعتقد باحثو العهد البيزنطي والمعاصرون - منهم بول سنيك على سبيل المثال - أن مصطلح أتسنگاني كان يستخدم دائماً في المصادر البيزنطية للإشارة إلى الفجر، ويحدد ذلك التفسير الجديد لمادة المصدر في زمن اختراق الفجر لحدود الإمبراطورية البيزنطية في وقت أبكر بكثير، مدعماً بعدد من أبحاث اللغويين المحدثين وفي العهد البيزنطي نجد مصطلح الفجر «الأأتسنگاني» مذكوراً في مدينة أموريون بإقليم فريجيا في تقويم «ثيوفانيس المعترف» الذي كتب حوالي عام ٨٠٠ للميلاد،

وفيه نجد تقريراً مفصلاً - كذلك - عن الصداقة الحميمة بين الإمبراطور البيزنطي نيكوفوروس الأول جنيك وبين المانويين الذين يسمون الآن بالبافيليكانيين بالإضافة إلى الفجر الذين يعيشون في فريجيا وليكونيا وتحديداً يُشار للمجموعتين من الفجر الأتسنجاني والبافيليكاني كمجموعتين مختلفتين، فالأخيرة ساعدت الإمبراطور بمعرفتهم للسحر حين أحمداً تمرداً ثار ضده عام ٨٠٣ م لذلك سمح لهم الإمبراطور بالتنقل بحرية عبر إمبراطوريته، وقد اختار بعضهم الاستقرار في منطقة ثراس.

اعتقد بعض المؤرخين أن الفجر استقروا في مدينة فيلبوبوليس وما حولها (مدينة بلوفيديف الحالية) على السهول الثراسية، ومنذ النصف الأول للقرن العشرين ربط بعض الكتاب البلغاريين - مثل نادين شيتانوف) بين استقرار غجر الأتسنجاني في ثراس بين ٨٠٣ م إلى ٩٠٤ م بوصول الفجر للمنطقة ولكن ذلك التاريخ البعيد لوصولهم لم يأخذه أغلب الباحثين بعين الاعتبار حتى الوقت الحاضر، والفجر في بلغاريا - بوجه عام - يتقبلون ذلك التاريخ المبكر، ويستعرضونه في إطار محتوى أحداث أخرى في التاريخ البلغاري، ومنها على سبيل المثال أسطورة - رغم رجوعها إلى أزمنة أكثر حداثة - معروفة بين الفجر في بلغاريا تقول: إن الفجر كانوا الحدادين الذين أئتمنهم الخان البلغاري «كاروم» لطلاء جمجمة الإمبراطور نيكوفوروس الأول جنيك بالفضة، وكان قد قُتل عام ٨١١ م في معركة فيربشكي باس، ووفقاً للأسطورة الوطنية البلغارية تحولت الجمجمة إلى كأس يتبادل الخان بها الأنخاب مع جنوده.

والدليل الثاني الأقدم فيما يتعلق بالغجر «الأتسنجاني» يأتي من السيرة الذاتية للقديسة أتاناشا من جزيرة إيجينا التي عاشت في القرن التاسع، ففي قصة حياتها وصف عن كيف كانت توزع الطعام - خلال فترة من فترات المجاعة - على غرباء يدعون الأتسنجاني.

وكانت اتجاهات أباطرة بيزنطة نحو الأتسنجاني في تلك العهود غير ثابتة أو مستقرة، ووفقاً لما ذكره ثيوفانيس المعترف، قام الإمبراطور ميشيل الأول رانجيف بتوقيع عقوبة الإعدام على المانويين الهراطقة - لفترة قصيرة من الزمن - والمعروفين الآن باسم البافليكياني وباسم الأتسنجاري من فيرجيا وليكونيا، ولكن مع ارتقاء الإمبراطور ميشيل الثاني العرش تغير الوضع تماماً. وبناءً على معلومات تفصيلية قدمها ثيوفانيس كونتناوتوس، أن الإمبراطور ميشيل الثاني نفسه جاء من مدينة أموريون في فيرجيا حيث يوجد العديد من اليهود والغجر الأتسنجاني وقد التزم بهرطقتهم الدينية التي «ورثها عن أسلافه»، وكانت تلك الهرطقة خليطاً من المعتقدات لدى الجماعتين، ووفقاً لثيوفانيس، كان أفراد الأتسنجاني يُعمّدون ولكن في بقية العبادات الأخرى اعتبروهم مثل اليهود عدا أنهم كانوا لا يختنون، وقد انشغل ميشيل الصغير «الثاني» بتربية قطعان الماشية في مبدأ الأمر ثم أصبح فيما بعد من المرتزقة إذ تنبأ له أحد أفراد الغجر من الأتسنجاني بأنه سوف يكون إمبراطوراً مما دفع الإمبراطور لمعاملتهم معاملة حسنة فيما بعد ووفقاً لبعض المصادر الأخرى - رغم أنها تعود لزمن متأخر - جاءت موجة ثانية لكتلة كبيرة من المهاجرين البافليكيان والأتسنجاني من إقليم أنطاكية واستقروا

مرة ثانية في منطقة فيليبوبوليس وحدث ذلك عام ٩٦٩ في ظل حكم الإمبراطور جون الأول تريميسكيس ، وتم تنظيمها بواسطة بطريك إقليم أنطاكية ؛ تيودور موناك . وبناءً على ما ذكره مايتي كوبيتار أحد حملة الأعلام السلافيين في القرن التاسع عشر حول قدوم القبائل المرتحلة المسماة «سيجاني» في خطاب أرسله الأسقف ثيوفلاكت الأوهريدي إلى الإمبراطور أليكسيوس الأول كومينوس (مع نهاية القرن الحادي عشر أو بداية الثاني عشر) وتعد هذه إشارة للفجر .

٢-٣ الفجر في ظل الإمبراطورية البيزنطية

نستطيع من خلال المصادر المتأخرة أن نؤكد أنه فيما بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر ، كانت كلمة أتسنجاني تشير تحديداً لأجداد الفجر ، وهناك مجموعة لها وزنها من الأدلة تدعم هذا الاعتقاد ، رغم وجود بعض المواد التي تناقض ذلك ، إلا أنها ليست دائماً مستندة على سجلات تاريخية صحيحة فعلى سبيل المثال ، يذكر تيودور بال سامون - مشرع الكنيسة البيزنطية في القرن الثاني عشر - أن الأتسنجاني تغطي أجسامهم علامات جروح الشعابن ويقومون بقراءة طوابع الناس «قراءة البخت» ، بالإضافة لوجود خطاب دوري من بطريك القسطنطينية أناستازيوس الأول يعود إلى النصف الأول من القرن الرابع عشر يحذر بشأن الوفاء والإخلاص لتعليمات الكنيسة فيما يتعلق بعدم قبولها لأي اتصالات أو علاقات مع سحرة الشعابن والسحرة عموماً وبالمنجمين ومدرسي الدبة ومن هم مثل ذلك ، مع تحذير خاص من الأتسنجاني الذين لا يجب ائتمانهم أو

إدخالهم المنازل لأنهم يتعبدون بأمور شيطانية وهذا ما أكدّه جوزيف برينوس - الذي كتب في منتصف القرن الرابع عشر - ملاحظاً أن الناس في ظل الإمبراطورية البيزنطية كانوا يختلطون يومياً بالسحرة والمنجمين والأتسنجاني والمشعوذين، والمصطلح «أتسنجاني» يستخدم تعبيراً على الإهانة في قصيدتين ساخرتين في العصر البيزنطي من القرن الرابع عشر، وتمدنا بعض الوثائق من أوروبا الغربية ببرهان أقوى حول وجود الغجر في البلقان، يذكر الراهب الفرانسيسكاني سيميون سيميونز عام ١٣٢٢م بعضاً من العبيد الذين نقلوا من بلاد الدانوب، وقد رأى أشباههم في مصر - سودا كالهنود - لكن بوجوه موشومة كما يلاحظ المؤلف نفسه مجموعة يطلق عليها «أجداد لحم الخنزير» كان قد التقى بهم في جزيرة كريت، يعيشون في خيام سوداء وكهوف ولا يستقرون في مكان واحد أكثر من ثلاثين يوماً وتذكر وثيقة كتبها أحد الحجاج من منطقة كولونيا بألمانيا - كان مسافراً إلى القبر المقدس عام ١٣٤٠ المسمى ماندوبولي - ورأى قوماً لاحظ الكاتب وجودهم أثناء مروره بأرض موريا (اليونان حالياً) يتكلمون لغة خاصة بهم لا يفهمها غيرهم، وقد وجد اسم مشابه هو ماندوبولين في وثيقة وصف لبولوبونيزيا كتبها لودولفوس السوتيمني عام ١٣٢٠م، وفي نسخة لقصة حياة القديس بارباروس من القرن الرابع عشر تذكر كلمة المصريين EGYPTIANS باعتبارهم يعيشون على طوال الساحل الألباني في إقليم ديراكيوم، ومن المعقول أن تكون كل تلك الإشارات أو على الأقل معظمها عائدة إلى الغجر الذين يقيمون بمنطقة البلقان.

في القرنين الثالث عشر والرابع عشر انتشر استخدام الكلمتين المتميزتين أتسينجاني والمصريين، مع وجود تمييز واضح بين المجتمعين، فعلى سبيل المثال في سجلات جريجوريوس كيريوس الثاني بطريرك القسطنطينية، ذُكرت ضرائب خاصة كان يجب جمعها من (المُسمنين مصريين و غجر أتسينجاني) بالإضافة إلى توكيل لجمع تلك الضرائب، حيث يقوم جامعو الضرائب «الموكلون» بدفع نسبة من جملة الضرائب المطلوبة مقدماً ثم يستردون المبلغ كله من دافعي الضرائب وأغلب المصادر المنتمية لتلك الفترة تستخدم اسماً واحداً فقط من الاثنين (المصريين — أو الفجر) وكمثال جاء ذكر اسم الأرملة «آنا» التي تعيش بالقرب من دير زيرو بوتامو على جبل أثوس مرتبطاً باسم زوجها الجديد «المصري»، كما يذكر اسم نيكولاس المصري الذي يعيش على أرض دير لارفا.

وتعد تلك الوثائق قطعاً فريدة لأنها توضح أنه منذ ذلك التاريخ فصاعداً بدأ تصنيف المصريين ضمن الفلاحين الذين لهم نصف حريتهم «الباريكي» في النظام الإقطاعي التابع لبيزنطة، كما يأتي ذكر «المصريين» كذلك في وثائق نوموكانون البيزنطية التي تحرم كل من يطلب من النساء المصريات قراءة طالعهم من تناول الخبز المقدس مدة خمس سنوات أو يدعو أولئك النسوة لممارسة السحر داخل منازلهم لشفاء مريض أو ما أشبه وفي عام ١٤١٥م جاء ذكر المصريين الذين أقاموا مدة طويلة في منطقة البيلوبونيز.

وقد أصبح اسم «المصريين» شائعاً في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، ويربط معظم الكتاب بين أصل الكلمة وبين إقليم يعرف باسم

«مصر الصغيرة» ويرى أغلب الباحثين أن «مصر الصغيرة» جزء من أرض البيلوبونير رغم وجود نظريات أخرى مثل أن مصر الصغيرة «هي أزمير الحديثة في آسيا الصغرى أو المنطقة المحيطة بإقليم أنطاكية (وهي الأناضول أنتاليا في تركيا الحديثة) ومن المحتمل أن الأساطير التي تدعي أن الفجر كانوا ملوكا «لمصر الصغيرة» قد نشأت في تلك الفترة وهي الأساطير نفسها التي تقول إن الفجر تكاثروا عند وصولهم لغرب أوروبا في القرن الخامس عشر.

وغالباً ما نجد في مصادر البيزنطيين في القرن الرابع عشر أسماء أخرى ومنها علي سبيل المثال القصيدة الساخرة «فلسفة السكران» الثمل؟! وهي تذكر أولئك المدعين كاتسيفيلوس - أي صناع المناخل - وهي كلمة مازالت تستخدم في اليونان الحديثة للإشارة إلى الفجر. ونجد المصطلح نفسه في فرمان عام ١٣٥٠م الصادر عن الإمبراطور جون باليولوجوس الخامس الذي يؤكد ملكية الأرض لأحد النبلاء ومع هذه الملكية ملكية الأقنان على الأرض نفسها وكان بعضهم يسمي إيجيتو كاتسيفيلوس «الفجر المصريين» بالمصريين صانعو المناخل؟

خلال القرن الرابع عشر في مقاطعة البندقية بإقليم البيلوبونير وجزر الأيونية، فلقد أنشئت بعض ممارسات إدارية معينة ضد الفجر مثل منح حق امتيازات ضرائبية أو حق الحكم الذاتي (وهي ممارسات انتشرت نوعاً ما مع دخول الفجر لأوروبا الغربية) فعلى سبيل المثال أعادت السلطات في مدينة نوبليا - بالبندقية في شرق إقليم البيلوبونير تأكيد الامتيازات التي اكتسبها أحفاد يوحنا سنجانوس الذي كان قائداً للفجر في عام ١٤٤٤.

كان الحجاج المتوجهون لزيارة قبر المسيح - عليه السلام - يذكرون بتكرار اسم غجر مدينة «مودون» وهي على الساحل الغربي لإقليم البيلوبونيز، ويأتي أقدم دليل في هذا الشأن عام ١٣٨٤ م من ليوناردو دي نيكولو فريسكو بالدي الذي كتب عن «روميتي» الذين يعيشون خارج أسوار المدينة، وبعد قرن أي عام ١٤٨٣ م ووفقاً لكتابات برناردفون بريدنباخ كان هناك حوالي ٣٠٠ أسرة فقيرة تعيش في أكواخ بالقرب من المدينة وكانوا سود البشرة كالإثيوبيين، في حين يضيف بعض الرحالة إلى ذلك بأن أولئك الناس كانوا حدادين، كما أن هناك وثائق من جزيرة كورفو تعود إلى النصف الثاني من القرن الرابع عشر وأرخت أول الوثائق بتاريخ ١٣٧٥ م وأعيد تأكيدها عام ١٣٨٦ م ولعدة مرات خلال القرون التالية تصنف جماعة الغجر بأنهم غجر الأرض تصف وجود الغجر وتأسيسا على منهج استثنائي تم إعفاء الغجر الذين يعملون حدادين وصناع القدور والمزارعين والذين في ظل شروط الوثيقة، من دفع الضرائب والالتزامات الأخرى - وهم مسؤولون فقط أمام زعيمهم (وهو بلقب بارون وكان أولهم اللو سياسي دي سيترو) والذي بدوره كان قد جمع منهم الكثير من الأموال وما إلى ذلك .

بفضل هذين المصطلحين «أتسنجاني» و«مصريين» المستخدمين في سجلات هذه الفترة، يمكن للمرء محاولة التمييز بين موجات هجرة الغجر إلى كل من البلقان وأوروبا، إذ يتضح أن هناك موجتين رئيسيتين للهجرة كفرضية مجردة، في الأولى - التي ربما تكون الأقدم - انتقل الأتسنجاني من القسطنطينية باتجاه أراضي بلغاريا، وصربيا ومولدافيا وفالاشيا، وفي

الثانية - المدعوة بالمصريين - تحركت الموجة عبر مصر الصغيرة - أينما تكون تلك الأرض والتي يبدو أنها كانت بإقليم البيلوبونيز - ووصلت فيما بعد إلى أراضي البلقان ، وأحفاد جماعة تلك الموجة هم من شكلوا المجتمعات التي اشتق اسمها من اسم المصريين ومنها (أوجوتي في بلغاريا ، وإيجيبتس في مقدونيا ، وإيفجي في ألبانيا وجيفتي في اليونان) وقد فقدت تلك المجتمعات لغتها الأصلية وأصبحت منفصلة تماماً عن هوية الفجر في بلاد البلقان ، وسوف يتولى الزمن أو اكتشاف مصادر تاريخية جديدة أو إعادة فحص وتدقيق المصادر الشائعة أمر إيضاح مدى صدق التمييز بين موجات الهجرة تلك إلى منطقة البلقان .

٢-٤ الفجر في ولايات البلقان

هناك دليل على دخول الفجر أراضي البلقان وولاياتها خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر لكن بعضاً من هذا الدليل يأتي متناقضاً ، فوفقاً لتقويم نيكوفوروس جريجورا وصلت مجموعة من لاعبي الأكروبات إلى القسطنطينية من مصر مع بداية القرن الرابع عشر (خلال حكم الإمبراطور اندرونيكوس الثاني) بعد رحلة طويلة من الشرق الأدنى وقد زار أعضاء تلك المجموعة بلاط العديد من الحكام المحليين في ثراس ومقدونيا وأراضي صربيا وقد قدموا عروضهم للملك صربيا فيما بعد (ستيفان ديشانكي) ثم وصلوا حتى إسبانيا بالتدريج ويذكر الباحث في الشؤون البيزنطية جورج سوليس أن مجموعة اللاعبين تلك كانت من الفجر . وفي عام ١٣٤٨ م أصدر ملك صربيا ستيفان دوشان

هيثاما تحديدا لعدد الضرائب الواجب دفعها بواسطة «السنجاري» الذين كانوا يعملون صناعات لحدائري الخيول وسروجها ثم وهبهم مع ملكياتهم وقراهم إلى دير الأسقفين ميشيل وجابريل بمدينة بريزن، ويعتقد بعض المؤلفين أن جماعة «السنجاري» الذين قدمهم الملك الصربي ميلوتين لدير هيليان داريو الواقع على جبل أثوس عام ١٢٩٠ كانوا أيضاً من الفجر لكن أغلب المؤرخين الصرب -والذين يتبعون خطى فرانز ميكلوسيتش - لا يقبلون هذا الدليل على وجود الفجر في الأراضي الصربية مفسرين هذه المفردات بصورة مختلفة على أنهم مجرد «صانعي أحذية» وعلى أي حال، لا شك أن الفجر كانوا قد دخلوا مناطق البلقان خلال هذه الفترة، وهو ما تم تأكيده بواسطة أدلة معاصرة، إذ يذكر سجل مدينة راجوزا لعام ١٣٦٢ م اسم اثنين من الإخوة مصريين (١) هما فلاهو وفيتان اللذان كانا يصنعان شرائط جلدية مفضضة والتي تم إيداع بعضها كرهن لدى صائغ محلي مقابل قرض، وقد جاء ذكر الفجر «تسيجاني» في مدينة زغرب لأول مرة عام ١٣٧٣ م ثم مرة ثانية عام ١٣٧٨، ثم في ليوبليانا عام ١٣٨٧ م، في حين تم تسجيل عشرات من الفجر في زغرب بين أعوام ١٣٨٧ و ١٣٩٧ كجزارين وتجار بشكل أساسي وغالبا ما كانوا يمثلون أمام المحاكم لعدم سداد قروضهم، والفجر يُذكرون - عامة - في الوثائق منذ القرن الخامس عشر (الموسيقيون وصغار التجار بصفة أساسية) وخاصة وثيقة عام ١٣٤٣ م التي تذكر قوم الراديكو تسيجاني في البوسنة باعتبارهم مدينين لتجار من راجوزا ووفقا لبعض الأساطير التي سجلت في عصور لاحقة فإن ابن حاكم ألبانيا ليك دو كاجين كان قد

قُتل بواسطة بعض الغجر في منطقة مونتيجرو في القرن الرابع عشر،
 بينما رفض ليك الانتقام من كل الغجر الذين يعيشون فوق أرضه لأن
 «المرء لا يشتري رغيفين من الخبز، مقابل قطعة نقدية ضئيلة، ومقابل
 دماء أُريقَتْ بالفعل ليس لدنيا حاجة لإراقة المزيد منها، ملتزماً بالقاعدة
 العرفية للثأر، هي الدم مقابل الدم، ورجل مقابل رجل بدلاً من معاقبة
 جموع الغجر»، ومن المحال أن يتأكد المرء من تاريخ أول اتصال تم بين
 شعب البلغار وقبائل الغجر، أو زمن الدخول المبكر الذي قام به الغجر
 في الأراضي التي كان يحتلها البلغار، أو حتى متى بدؤوا الاستقرار في
 الأراضي البلغارية بصورة دائمة، إذ أدى الكلام المتكرر بنصوص ميثاق
 ريلا (١٣٨٧) الذي أصدره القيصر إيفان شيشمان إلى الكثير من سوء
 الفهم، حيث يشير النص إلى منطقة تعرف باسم «اجوبوفي كليتي» وهي
 التي غالباً ما كان الباحثون البلغار والدوليون يربطونها بوجود الغجر
 (مفسرين هذا المصطلح بكلمتي «إيجيوبتي كليتي» والتي تعني الغجر
 الفقراء) رغم أن النص لا يفيد هذا، بل كل ما يشير إليه هو تلك الحال
 الموسمية للرعاة في الجبال ورغم الافتقار إلى دليل، إلا أنه يمكن التأكيد
 أن استقرار الكتلة الكبرى من الغجر في الأراضي البلغارية قد حدث فيما
 بين القرنين الثالث عشر والرابع عشر، وهذا الغرض يسمح بوجود اتصال
 واستقرار مبكراً عن ذلك، ومثال لذلك تلك الهجرة المذكورة سابقاً عن
 «الأتسنجاني» إلى منطقة «ثراس» في بداية القرن التاسع وهذه الثقة نابعة
 من تلك الوثائق المتعددة التي تسجل وجود الغجر في الدولة البيزنطية
 بالإضافة إلى تقدمهم باتجاه صربيا ومولدافيا وفالاشيا، آخذين في الاعتبار

الموقع الجغرافي لبلغاريا، ويبدو الغرض القائل باستقرار - أو على الأقل عبور - الغجر في الأراضي البلغارية خلال تلك الفترة منطقيا، بالإضافة إلى وجود دليل من القرنين الخامس عشر والسادس عشر يفيد بأن الغجر المسيحيين فاقوا الغجر المسلمين عددا في أراضي بلغاريا دالة على أن غالبية الغجر قد استقرت هناك فيما قبل الغزو العثماني واستيعاب بلغاريا وسط الإمبراطورية العثمانية ومن نفس هذه الفترة الزمنية، لدينا الدليل الأقدم على وجود الغجر في المناطق المحلية لمولدافيا وفالاشيا شمالي نهر الدانوب، رغم أن وضعهم هناك كان مختلفا جدا عن بقية ولايات البلقان، ووفقا للأسطورة - المنتشرة أيضا في الأدبيات الأكاديمية - نعلم أن أمير مولدافيا أليكساندر الأول هو الذي قام بدعوة الغجر، وأصدر فرمانا خاصا يضمن لهم أرضا وهواء ليعيشوا عليها وكما وفر لهم حديدا ونارا، للعمل بهما، وقد ذكر ذلك الفرمان المؤرخ ميشيل كوجالينسينو دون أن يشترك معه أي أحد آخر في رؤية النص الأصلي للفرمان، وتشكك غالبية المؤرخين في وجود ذلك القرار ويشاركونهم ذلك الرأي المؤرخون الرومانيون.

وما هو مؤكد - على كل - أن دخول الجmhرة الكبرى من الغجر إلى أرض مولدافيا وفالاشيا ارتبط بتقديمهم إلى الأديرة كعبيد، إذ انتشر في إقليم البلقان في ذلك الوقت عادة تقديم الأرض بما عليها من بشر «من فلاحين وحرفيين وعبيد» إلى الأديرة بواسطة الحكام والأثرياء، فعلى سبيل المثال، قام نبلاء صربيا عام ١٣٤٠ م بإهداء عدد من العائلات الغجرية إلى دير العذراء المقدسة في تسمانا في إقليم كارباثيا، وفي عام ١٣٦٠ م قدم الزعيم فلادسلاف مجموعة من الأسر الغجرية لدير القديس أنتوني

بمدينة فورتيشي، وفي عام ١٣٨٥ م قام ابن أخته دان الأول حاكم وسيد كل أراضي انجروا - فالاشيا بتقديم أربعين أسرة غجرية لدير العذراء المقدسة في تسمانا، وفي عام ١٣٨٧ م أكد وريثه جون مرسيا هذه الهبة ومنح الدير في جوزيا ٣٠٠ أسرة من الغجر، ووفقا للخطاب الإمبراطوري «لكريسبول» عام ١٤٢٨ م قدم أمير مولدافيا أليكساندر الطيب هدية مماثلة للدير في بيستريا وهكذا... وبهذا الأسلوب وبالتدرج تطور نظام شرعي كبير في هذين الإقليمين المحليين، شمل الغجر «الأتسينجاني» بحالة معقدة من العبودية سنطرحها للمناقشة آجلا.

٢-٥ الغجر عشية الغزو العثماني

من الواضح الجلي أن هناك عدداً من الثغرات في سلسلة تاريخ وجود الغجر في بلاد البلقان، بالإضافة لعدد من الأسئلة التي لا توجد لها إجابات حاسمة، والحلول المفترضة - هنا - هي مجرد افتراضات حتى الآن - وعلى أي حال فمن الظاهر تماماً أنه عندما بدأ الغزو العثماني للبلقان خلال القرن الرابع عشر، كان هناك غجر موجودون بالفعل عاشوا في الإقليم مدة غير قليلة، وقد حدث التوافق في معيشة الغجر وسط شعب البلقان بطرق مختلفة كجماعات من الرُّحْل والمثليين المتنقلين أو كحرفيين بالمدن أو تجار، وفي إطار هذا المعنى يمكن اعتبار مفهوم العبودية كشكل من أشكال التوافق داخل المجتمع، وعلى أي حال فقد توافق الغجر مع الحياة الاجتماعية والثقافية للإقليم حتى ولو كان ذلك - أحياناً - بأساليب غير معتادة.

وعلى المرء أن يؤكد عدم وجود مشاعر مباشرة بالعداء تجاه الفجر في البلقان - إذا ما نحينا جانباً ذلك الشكل المحدد من العبودية الذي وُجد في مولدافيا وفالاشيا حيث كان ذلك وضعاً فريداً في تاريخ الفجر - مثل تلك المشاعر التي شاعت بين أفراد المجتمعات المحلية في غرب أوروبا تجاههم في العصور التالية، فالمصادر - رغم تأثرها - تسفر عن اتجاهات سلبية مشوبة بالاحتقار تجاه الفجر لكن ذلك لم يتحول إلى ملاحظات نمطية تقوم بها السلطات الدينية أو المدنية لهم، ولم يتم هذا الاضطهاد دون وجود حالات مماثلة في أماكن أخرى لكن يمكن تفسيرها وفقاً لطبيعة الإمبراطورية البيزنطية وطبيعة ولايات البلقان التي كانت مرتبطة ثقافياً وتاريخياً بتلك التوجهات، فالمنطقة كانت خليطاً من شعوب مختلفة حيث تعد مطاردة الآخر استثناءً لا قاعدة.

الفصل الثالث

شروق مجد الإمبراطورية العثمانية

كانت الإمبراطورية العثمانية ضمن إمبراطوريات العالم العظمى، إذ كان لها تأثير كبير على مجرى التاريخ العالمي وعلى مصير الشعوب الذين كانوا جزءا من تلك الإمبراطورية.

٣-١ الغزو العثماني للبلقان

إن تأسيس الإمبراطورية العثمانية كان نتاج الاستقرار الدائم للقبائل التركمانية المتعددة في آسيا الصغرى من القرن الحادي عشر فصاعدا مع القادمين من آسيا الوسطى، وقد حدثت آخر أكبر هجرة لهم خلال القرن الثالث عشر تحت ضغط الغزوات المغولية، ومع نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر نجحت قبيلة تركمانية بقيادة الأمير أرطغرل وابنه عثمان (١٢٩٩-١٣٢٦) في إخضاع القبائل المجاورة الصغرى ووضعت أسس دولة عثمانية تركية جديدة في آسيا الصغرى وقد سميت بذلك نسبة لاسم الأمير عثمان.

وخلال حكم القائد الثاني أورخان (١٣٢٦-١٣٥٩ م) انتهز العثمانيون وقوع الحروب الداخلية في الإمبراطورية البيزنطية وبدؤوا في غزو آسيا الصغرى كلها تقريبا ونفذوا لبلاد البلقان وفي عام ١٣٥٢م استولوا على قلعة تسيمبي في شبه جزيرة جاليبولي ثم على قلعة كاليبولي بعد عامين من ذلك، وفي هذا الوقت تصدعت أركان الإمبراطورية البيزنطية وولايات البلقان بسبب الصراعات المتتالية التي أدت إلى نشأة عدد من الولايات الصغيرة المستقلة وشبه المستقلة والملوكيات الإقطاعية واستفادت الجيوش

العثمانية من هذه الظروف واخترقت منطقة البلقان ، وخلال حكم السلطان مراد (١٣٦٢ - ١٣٨٩ م) سادت الجيوش تدريجياً على إقليم « ثراس » بما في ذلك مدن أدرينوبل ، وديموتيكافلبوبوليس ، وقد أعاد الأتراك تسمية مدينة أدرينوبل إلى « ادرين » وتحولت إلى عاصمة للدولة العثمانية ، وانتشر الغزو العثماني إلى مدى أبعد عقب معركة تشيرنومن (تشيرمن) التي تم فيها تدمير جيشي « فوكاشين » و « احلبش » - وهما حاكمان مستقلان لأجزاء من منطقة مقدونيا . وفي عام ١٣٨٢ م وقعت مدينة صوفيا بأيدي العثمانيين وبعدها زادت إمكانيات امتداد الغزو العثماني .

٢-٣ الحروب العثمانية وبناء الإمبراطورية

تحدد مصير شعب البلقان بوقوع معركة كوسوفو ، حيث هُزمت الجيوش المتحدة لعدد من حكام منطقة البلقان تحت قيادة « لازار » ملك صربيا ، وواصل السلطان الجديد بايزيد الأول « الصاعقة » غزو كل من صربيا وبلغاريا من محليات إقليم تورنوفو (عام ١٣٩٣ م) ومنطقة « فيدين » (١٣٩٦) وقد عبرت جيوشه نهر الدانوب وأجبرت حاكم فالاشيا جون مرسيا على أن يصبح تابعا له .

سلاطين بني عثمان		
1324	1299	1- عثمان الأول
1362	1324	2- أورخان غازي
1389	1362	3- مراد الأول « هاد أفنزي غيار »
1402	1389	4- بايزيد الأول « الصاعقة »

1413	1402	5- بلا حاكم محدد
1421	1413	6- محمد الأول
1451	1421	7- مراد خوجة الثاني
1481	1451	8- محمد «لثاني» الفاتح
1512	1481	9- بايزيد فيلي «لثاني»
1520	1512	10- سليم الأول «يافوظ»
1566	1520	11- سليمان الأول «المشرع» العظيم
1574	1566	12- سليم الثاني «سارحوش»
1595	1574	13- مراد الثالث
1603	1595	14- محمد الثالث «العدلي»
1617	1603	15- أحمد الأول «باهتي»
1618	1617	16- مصطفى الأول «ديلي»
1623	1622	
1622	1618	17- عثمان الثاني «جنش»
1640	1623	18- مراد الرابع «الغازي»
1648	1640	19- إبراهيم الأول «ديلي»
1687	1648	20- محمد الرابع «أفجي»
1691	1687	21- سليمان الثاني
1695	1691	22- أحمد الثاني
1703	1695	23- مصطفى الثاني الغزي
1730	1703	24- أحمد الثالث
1754	1730	25- محمد الأول «كامبر»
1757	1754	26- عثمان الثالث
1774	1757	27- مصطفى الثالث
1789	1774	28- عبد الحميد الأول

1807	1789	29- سليم الثالث « جيهاندر »
1808	1807	30- مصطفى الرابع
1839	1808	30- محمود الثاني « عدلي »
1861	1839	31- عبد المجيد الأول « الغازي »
1876	1861	32- عبد العزيز
.....	1876	33- مراد الخامس
1909	1876	34- عبد الحميد الثاني
1918	1909	34- محمد الخامس « رشاد »
1922	1918	35- محمد السادس « فهد الدين »
1924	1922	36- عبد المجيد الثاني « الخليفة »

وبالتدريج غزت الإمبراطورية العثمانية جميع أراضي البلقان مع بقاء فالاشيا ومولدافيا في حالاتهما الخاصة كمحليات تابعة، وسقطت مدينة نيسالونيكى عام ١٤٣٠م، وبعد فترة طويلة من الحصار نجح السلطان محمد الفاتح «الغازي» في الاستيلاء على مدينة القسطنطينية التي أعيد تسميتها «إستانبول» وأصبحت العاصمة الجديدة للإمبراطورية بديلا عن «إيدراين» وتم احتواء الأرض المفتوحة داخل الإمبراطورية العثمانية التي طورت نظامها الإداري والاقتصادي المعقد المبني على أساس عسكري والذي طُبّق بدوره على الرعايا بمن فيهم الفجر. وقامت الإمبراطورية بمد غزواتها نحو الشرق الأوسط وشمال إفريقيا بالإضافة إلى وسط أوروبا، وقد وصلت إلى قمة عظمتها في عهد السلطان سليمان الأول «العظيم» ١٥٢٠-١٥٢٦م ثم سقطت المجر بعد معركة موهاكس عام ١٥٢٦م، وتوقف توسعها فقط بسبب حصارها الفاشل لمدينة فيينا عام ١٥٣٩

وهزيمة الأسطول العثماني في موقعة ليبانتو عام ١٥٧١م، وهي الهزيمة التي حدثت بفعل التحالف بين إسبانيا والبندقية متحدتين تحت رعاية بابا روما.

وقد تبع ذلك سلسلة من الحروب الأقل نجاحا والتي نتج عنها مجموعة من الهزائم العسكرية أوقعتها بالإمبراطورية كل من النمسا، وبلاد فارس، وروسيا والبندقية أدت إلى توقيع اتفاقية كارلو فيتز التي كانت مؤشر بداية انهيار هذه الإمبراطورية.

٣-٣ المصادر التاريخية

حول وجود الغجر في الإمبراطورية العثمانية

هناك دليل تاريخي له اعتباره على وجود الغجر في البلقان خلال فترة السيادة العثمانية، رغم أن ذلك الدليل يعد غالبا مهلهلاً وغير حاسم، إلا أنه يمدنا بعلامح محددة لطبيعة وامتداد ذلك الوجود حيث وصل عدد كبير من الغجر إلى منطقة البلقان أثناء الغزوات العثمانية، ووصل عدد كبير من المهاجرين الغجر لأراضي البلقان في وقت الغزو العثماني، وكان وصولهم إما مباشراً باشتراكهم في تلك الغزوات (على الأغلب كجنود أو كحدادين يساعدون الجيش). أو باعتبارهم جزءا من البشر الذين صاحبوا الغزو ومضى بعض من أولئك الغجر قدما مع الجيش داخل أوروبا في حين بقي عدد له قيمته في أراضي البلقان حيث استقروا هناك أو استمروا في انتهاج حياتهم كقبائل مرتحلة، ومع وجود نسبة من السكان من الغجر في الأراضي المفتوحة حديثا، فقد تبدت أرقامهم في عدة وثائق

رسمية تعود إلى تلك الفترة، وتجدها أساسا في الأرشيفات الثرية الخاصة بالحكومة العثمانية والإدارة المحلية (التي دُرست بتوسع حتى الآن) تحت مسميات القبط والصينيين (أوتشين ماتشين وهي الصين بالتركية) وتشمل تلك الأرشيفات وثائق إدارية تحوي تفاصيل لسجلات الضرائب وأوامر المحاكم المتعلقة بالأموال المدنية والاقتصادية والدينية والعائلية، وكان النظام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي العثماني مختلفا كثيرا عن النظام الغربي الأوروبي، فعندما كانت الإمبراطورية العثمانية في أوجها، كان بناؤها الطبقي المعقد المؤسس على الإدارة العسكرية والاقتصادية والدينية واقعا تحت سيطرة القبضة المحكّمة للسلطان وقد تحكم هذا النظام المعقد في سُبُل الحياة اليومية لمجموع السكان، حيث تم تصنيفهم -أيضا- بصورة مرتبة إلى فئات متعددة، كان أهم فئتين منهم المسلمين «المؤمنين» والرعايا المسيحيين، ولكل فئة أحوالها المختلفة وعلى كل منها التزاماتها المغايرة تجاه الدولة المركزية ويظل هناك سؤال منهجي بلا حل ويهمله معظم المؤرخين المتخصصين -رغم إمكان إثارته لمشكلات خطيرة - وهو إلى أي مدى تَمَدُّنا الوثائق الرسمية الموجودة بصورة حقيقية عن الماضي؟ وهذا التساؤل يُعد مسببا للإشكالات خاصة في حالة منطقة البلقان بغض النظر عن الفترة الزمنية والنظام السياسي الخاضع للدراسة إلا أنه بعد أن نأخذ في اعتبارنا أوجه القصور المحتملة للمصادر التاريخية الموجودة، نجد أن تلك المواد الثرية المتاحة تمَدُّنا بنقطة بدءٍ لنظرة جديدة في تاريخ الغجر في ظل الإمبراطورية العثمانية.

٣-٤ الفجر في سجلات الضرائب

تم تحديد طبيعة سجلات الضرائب بواسطة النظام الاقتصادي العسكري المعقد للملكية الأرض داخل الإمبراطورية وبالتحديد كانت الأرض ملكا خاصا بالإمبراطورية وهناك جزء منها (والمسمى الميولك) يخص السلطان نفسه أو يخص السلطات الدينية (الفاكوف - الأوقاف) وقد قسم السلطان الأرض المستعمرة إلى أجزاء أسموها (التيمار والزيامت والهاس) ووزعها على طبقة القيادة العسكرية (السباهي) وخصص لهم نصيبا من الضرائب المتنوعة مقابل قيامهم بواجبات عسكرية محددة، مثل تسليح وتغذية عدد من الناس وتنفيذ بعض الأدوار معهم خلال الحملات الحربية.

ويعود أول ذكر للفجر في وثائق الضرائب للإمبراطورية العثمانية لعام ١٤٣٠م وهو موجود في سجل «التيمارز» المنتسبين لسنجقية إقليم نيكوبول، ومسجل به ٤٣١ أسرة غجرية ويمثلون ٣,٥٪ من جملة المسجلين بوجه عام، كما أن مجموعة القوانين واللوائح المتعلقة بالسكان في مقاطعة روميليا عام ١٤٧٥م تُعد مصدرا أكثر أهمية وشمولا في ذكر أعداد الفجر وأوضاعهم الاجتماعية أيضا في عهد محمد الفاتح الثاني، وقد احتوت روميليا تقريبا كل شبه جزيرة البلقان باستثناء الأقاليم التي لها وضع خاص مثل محليات مولدافيا وفالاشيا والبوسنة ويتضح من تلك المجموعة أن كل الفجر في ذلك العصر - بغض النظر عن كونهم مسلمين أو مسيحيين - قد سددوا ضريبة الرأس، وإلا فإنها كانت تُجمع من غير المسلمين فقط، وقيمتها حوالي ٤ ١/٢ أكشه سنويا طوال السنوات الثلاث التي غطاها ذلك السجل.

وعلى أي حال تفيدنا وثيقة أخرى داخل تلك المجموعة أن الفجر المسلمين قد مُنعوا من الاختلاط بالفجر المسيحيين، وكان عليهم أن يدفعوا ضريبة أعلى لو وقعوا في ذلك إذ على المسلم أن يعيش فقط بين المسلمين وإذا ما استمر في العيش بين غير المسلمين فعليه أن يدفع ضريبة الرأس بنفس قيمة الضريبة المفروضة عليهم.

والقراران يحملان نوعاً من التعارض، فالممارسات المعتادة على أي حال، أن يقوم المسيحيون بسداد ضريبة أكبر من المسلمين، كما سيتضح من سجلات الضريبة التي سنذكرها فيما بعد في هذا الفصل.

كان النظام الذي يجمعون بواسطته الضرائب من الفجر الرُّحل محدداً حيث لا بد للقاضي أن يمنح السلطة بالوكالة لشخص يمكنه الرحيل مع الفجر ويكون مسؤولاً عن دفع الضرائب، وفي الواقع فإن سلطة ذلك الوكيل كان من المحتمل أن تمنح إلى نائب يأتي من مجتمع الفجر نفسه، وكانت فئات معينة من الفجر تُستبعد من ضريبة الرأس تلك ومن بينهم أولئك الذين يقدمون خدمات ما للجيش وعلى سبيل المثال الفجر الذين يعيشون في الحصون ويقومون بأعمال الصيانة فيها، كأعمال الحدادة وإصلاح الأنواع المختلفة من الأسلحة، والعمل بالفرق الموسيقية العسكرية وأعمال القوات المعاونة، وكان تطبيق إعفاءات ضريبة معينة على الفجر في خدمة الإمبراطورية مستمراً لفترات متأخرة خاصة في بعض الأقاليم ذات الحالات المحددة مثل البوسنة.

وهناك سجل خاص آخر تم حفظه متعلق بالفجر المسيحيين الذين كان عليهم سداد ضريبة الرأس هذه ومع كل الاحتمالات، استقر أولئك

الغجر في منطقة البلقان قبل الغزو العثماني ، وهذا السجل يغطي الفترة من ١٤٨٧م إلى ١٤٨٩م ويسجل الغجر المسيحيين الذين عاشوا في مقاطعات استانبول وفيزا وجاليبولي وايدرامن وشيرمن ويانبولي وفيلبي وصوفيا ونيكوبول وفيرمن وكيوستديل وكروشيفاتس وسميديرفو وياني بازار والبوسنة ، ومثلوا ٣٢٣٧ من الأسر إجمالاً بالإضافة إلى ٢١١ أرملة أخريات ، ووفقاً للقواعد العثمانية يُعد الرجال فقط الذين كانوا رؤوساً للعائلات ، أو الأرامل عندما يكون لهم وضع الرجال نفسه هم المصنفون كدافعي ضرائب ويدفعون لصالح عائلاتهم كلها ، ولذا سجلت وثائق الضرائب هاتين الفئتين السابقتين فقط . وبحث السجل وُجد تنظيم خاص يعود إلى عام ١٤٩١ م - مرفق معه - كان يحدد مبلغ الضريبة المستحقة وهو ٢٥ أكشه سنوياً ، ويحدد ضريبة أخرى هي ضريبة الأرض المقررة على المسيحيين وتسمى إسبنشة ورسم يُفرض على الليلة الأولى للزواج وتسمى (كروفينا) .

٣-٥ ماذا نتعلم من سجلات الضرائب؟

تعطينا البيانات المستخلصة من سجلات الضرائب فكرة واضحة للنمو الديموجرافي للكثافة البشرية للغجر في مواقع متعددة ، منها على سبيل المثال سجل الضرائب في فيلبي فيما بين ١٤٨٩ - ١٤٩٠ الذي سجل ٣٣ عائلة و ٥ أرامل رؤوساً لعائلات ، وفي عام ١٥١٦ وصل عدد العائلات إلى ١٧٥ ، وبعد عشر سنوات كان هناك ٢٨٣ عائلة بالفعل ، كان منها ٩٠ عائلة مسلمة و ١٩٣ مسيحية ، وفي عام ١٥١٦م في مدينة بليفني تم

تسجيل ١١ عائلة غجرية وفي عام ١٥٥٠م وصلت إلى ٣٦ عائلة بينما وصلت عام ١٥٧٩م إلى ٤٤ عائلة، كما تمدنا البيانات بفكرة عن النسبة المئوية للفجر مقارنة ببقية السكان ففيما بين أعوام ١٥٢٦ - ١٥٢٨ م على سبيل المثال في مقاطعة أسكي زارا كان هناك ٢٤٥٠ عائلة كانت ٦١ عائلة منها من الفجر، أما في عام ١٥٩٥ م في مدينة يانبولي فكان هناك ٥٢٩ عائلة كان منها سبع فقط من الفجر وسجل الضريبة التالي الذي يستحق عناية خاصة يعود إلى عامي ١٥٢٢م - ١٥٢٣م وعنوانه «الوثيقة الشاملة للدخل والضريبة على الفجر بمقاطعة رومليا....» الذين وجدوا على أرض السلطان «المتوفى» بايزيد خان.... وفي فاكوف ومايولكس التابعة لكبار الوزراء والنبلاء في سنجقية الفجر ومقاطعات زياميت وتيمارز.... ويضم ذلك السجل الضخم ٣٤٧ صفحة وكان يتعامل بشكل محدد مع مسائل الفجر، وسجل عدد العائلات الفجرية مصنفة وفقاً للجماعات الضريبية المقيمة في تسع مقاطعات قانونية بالإضافة إلى البنية الدينية للفجر، والمقاطعات التي يعيشون فوق أرضها، ووظائفهم وأحوالهم الاجتماعية، كما سجل ذلك المستند ١٠٢٩٤ مسيحياً و٤٢٠٣ مسلم من رؤوس العائلات الفجر (وتشمل في مجملها ٤٧١ أرملة معيلة، وبخلاف ما سبق ذكره كان هناك ٢٦٩٤، عائلة مسلمة يعيشون في «سنجقية الفجر» ووفقاً لحسابات المؤرخ المقدوني أليكساندر ستوجانوفسكي -الذي بنى تقديراته على أن كل عائلة بها ٥ أفراد في المتوسط- وبعد السماح بإدخال بعض التعديلات تكون جملة الفجر ٦٦٠٠٠ نسمة منهم حوالي ٤٧٠٠٠ من المسيحيين، ووفقاً لتقديرات

أخرى اعتمدت على ذلك السجل وجدوا أن هناك ١٧١٩١ عائلة غجرية في الأرض التي شكلت الآن بلاد البلقان والتي توزعت كالاتي ؛ في ترك ٣١٨٥ واليونان ٢٥١٢ وألبانيا ٣٧٤ ويوغسلافيا «السابقة» ٣٨٢ ، وبلغاريا ٥٧٠١ ، في حين كان الرقم المحلي الفعلي ١٠٣٧ عائلة رقما غير مؤكد ، وذلك يبين بوضوح أن الفجر وجدوا بأعداد أكثر في بلغاريا من وجودهم في أي مكان آخر من منطقة البلقان .

٦-٣ الفجر - مسيحيون ومسلمون

يمكن استخلاص دليل إضافي من سجل ضريبة روميليا لعامي ١٥٢٢ — ١٥٢٣م فرغم تعدد أنواع الضرائب التي تدفع لم يكن هناك اختلاف ذو قيمة بين ما كان يدفعه الفجر المسيحيون وما يدفعه الفجر المسلمون ، فعلى سبيل المثال كان على رؤوس العائلات المسيحية أن تسدد ٢٥ أكشه ضريبة لأرضهم في حين كان على المسلمين دفع ٢٢ أكشه وهو النظير المقابل لضريبة الأرض للمسلمين ويدعى رسم الشفت ، وكانت بقية الالتزامات التمويلية إما هي نفسها أو متشابهة تماما بما في ذلك الرسوم المختلفة مثل رسم العرش «البادوهافا» أو الغرامات الموقعة لسبب الجرائم والانتهاكات وتسمى «جيوريوم الجناية» .

ويمدنا تحليل مبدئي للأسماء الأولى لأفراد الفجر بفرصة لدراسة مدى الانتساب الديني لديهم ، فالفجر الذين سجلوا بوصفهم مسلمين غالبا ما كان لهم أسماء مسيحية النمط (دون التسجيل بأسماء مثل ابن عبد الله وهو اسم يغلب إطلاقه للمهتدين للإسلام حديثا) والعكس كان

أيضا صحيحا حيث وجد للفجر المسيحيين أسماء إسلامية (ففي جماعة ضريبية يرأسها ياني في مقاطعة بونارهي سار تم تسجيل محمود أخا لـ ياني وكوجا محمود وبارا سكيف ابن قاسم على أنهم مسيحيون ، وفي جماعة تورالي تم تسجيل ابن حسين من مقاطعة يانبولي وكوستاس ابن أناستاس وتاسوس أخا لـ نيكولا ونيكولا ابن كوشار على أنهم مسلمون بينما جرى تسجيل حسين كيتودا ابن تورالي ورسيم أخى تانار وحسين أخيه وارانافود أخى سيدي ودرويش أخا لـ كوريز وإبراهيم هرورزو بوصفهم مسيحيين ، وفي جماعة جوروس تم تدوين ابن موهوس من مقاطعة اسكي زارا وكالين ابن إيفان وبوجدان أخى باسكال بين المسلمين ، بينما ضم السجل كلاً من إسكندر وحمزة إخوة ماتوس ويانكوس ابن إسماعيل وإيفان ابن اسكندر وإبراهيم ابنه بين أسماء المسيحيين وقد أظهر ذلك الدليل أن نظم التسمية لدى الفجر كانت مختلطة جداً . فاستخدام الأسماء المسيحية والإسلامية التي ربما تعكس الخصائص الموحدة لمعتقداتهم غالبا ما تتغير وفقا للظروف المحيطة .

وهناك بعض من المعلومات في ذلك السجل مثيرة إلى مدى بعيد ، هي أن كل أسماء النساء الفجريات تقريبا مسيحية ويفترض المؤرخ التركي م . ت جوك بلجين أن سبب ذلك هو أسلوب الحياة المتنقلة التي يعيشها الفجر الذي أدى إلى احتفاظهم بشكل من أشكال النظم الأمومية في قيادة الأسرة والقبيلة ، ولتكريم الأم الكبرى التي كانت بمثابة « حارسة أعراف الفجر » ، وهذا التفسير بالطبع تفسير افتراضي وإن لم يكن غير منطقي ويستحق المزيد من البحث .

٣-٧ ماذا كانت أسماء الفجر ؟

ويُعد سجل الضرائب لعامي ١٥٢٢ م - ١٥٢٣ م مصدراً مهماً لأسماء الفجر الذين وصلوا لسن الالتزام بدفع الضريبة ونجد بعضها صعباً في تفسيره، وهو ما أذكره فيما هو آت مصحوباً بعلامة استفهام، وأغلب هذه الأسماء كان يستخدم بواسطة السكان المحليين أيضاً متأثرة قليلاً بلغة الفجر الرومانية، ومن غير المؤكد نسبة ذلك إلى الاستخدام المتكرر لنوعين من الأسماء التي يتنادى بها الفجر في منطقة البلقان، وهما التسجيل الرسمي لاسم تستخدمه السلطات واستخدام الاسم الخاص للفرد داخل الجماعة.

وقائمة الأسماء أقدمها بالترتيب الأبجدي «اللاتيني»، ولكن عندما يكون الاسم مركباً أو مصحوباً بلقب ما للفرد أو لأسرته أو بأي توضيحات أخرى فسوف يتم تصنيفه بصورة منفصلة مثل حالة اسم عبد الله فرانا، أو جيورو تارليش أو بالي بانكو وكارا حمزة وكيور ستيبان وماستور يورجي وأليكشي يوسف وسيماريسا حكيم وعلي بك .. إلخ. والمتغيرات الصوتية لحروف الاسم نفسه كتبتها بصورة منفصلة مثل؛ بالو وباليو أو جورو وجوروس أو جايورا وجايورو .. إلخ، ومن القائمة ندرك أن أغلب الأسماء الشعبية للفجر التي بها متغيرات صوتية كانت في أسماء من مثل؛ نيكولا (كولي / كويو) إيوان (يوفان / إيفان / يانكو / ياني / يانو / يانكوس) ديمتري (ديمو / ديمكو / ديموس) محل «ميها» (ميهو / ميهوس) كوستادين (كوستاس / كوستا)، وإذا جاء ذكر اسم ما أكثر من مرة دونتُ عدد مرات تكراره في السجل بين قوسين

بعد الاسم مباشرة في الآتي :

عبد الله فرانا - عبدو اللا - آيدين - آيدين براتولا - الجايوز - أليڪسي
وعلي (٢) - علي بك وأنجل (٢) - أناستاس وأنديا (٤) - آراب - أرنا
فود - أهيربان ديمتری - أحمد - إياس - باز - بايکو وبايو (٣) ، بايراڪلو -
بياکينا - بايکي - باکان، بالابان (٢) - باي بك - بالي بانکو (بايکو) -
باليو - بالو - باراڪين - باربا - بارکو - بارهينا - باستالا - باتيا (تاديا) ،
باتو - باشا - باشيلکو - بيحياتا (؟) - بيزان - بيزارلي (٤) - ،
بيهادير - بيکشا - شوشوي ، بوجدان (٢) - بوجي - بوزيک - بويکو
- بورو - يوسيلکو - برايوي ، برانيلا - برانيش - برانکو (٢) ، براتو
- براشو - برايوان _ بولاکي - بولاشي (٢) - ، برهان - بويوک سيڪلو
حاجي ، شافلي - شاکار - شابوڪلي - شيکريا - شيشنجي بولات (؟)
- شيو - شيکو زيرکر - شيلينجر - شوهو - شوشي - شوشمان - دابي
- دافيد لي - دافيد - دافود - دميان - دانو - دارکو - داسا - ديفالي
- ديدي - ديدو - ديلي يوفان - ديلي يونس - ديلي نيکولا - درويش
(٢) درويش علي - ، ظافر يرجي - جاهو - جبلي - جيچيکو - جيرو
- جورا - جوتا ، ديف - ديو - ديمکو - ديمو (٢) - ديمو (٦) - ديمو
فلاهوت - ديمو بترمي - مينا - ديموس رايکو ، ديمتری (٨) - ديمتری بيلو ،
دوبري - دوبرين - دوبرو سلاف ، دوجان - دراجا دراجي - دراجيشکو
- دراجمان - دراکو مير زرکر - دراجوس ، دوشنو - دودش - دودو -
دويکو - دوکا (٣) ، إفرينوس ، إجوريدا - إيدجي ، قاسم درويش ، إيليز
دوکا ، إيليكشي يوسف ، إيرينو ، إيفيندو - إيفيندو بول ، إفلاکا کوستا ،

فاكا، فيليب، شنجار، فيلور، فوكادجيورو فركو، جايو - جانو - جايا
 - جينشي، نوافك جيراليا، جوجو (٢)، جورو - جوروس - جردلو
 - جوشيروي، جيورا (٢)، جيورو (٢)، جيورو تارليك، هاني مان،
 حكيم بالي - حمزة - حسن (٢)، هيرجوتا، هيرستو، هيرسو (٢)
 هامبود حسين (٢) - حسين كيثودا، ابراهيم، ابراهيم هروزو،
 ايفان (٢) - ايفليا - افرادا - ايفرانا - ايفو، ايلياس (٢) - عيسى
 «ايسا» بالي، إسكندر (٢)، إسماعيل (٢) - إسماعيل نيكولا، إستويان
 (٢)، كاليا (٢) - كالين - كالكان - كالكو - كالودي - كالوس -
 كالون - كاما -، ماشوكا، كارافاسيل - كارافيدا - كارا جورجو - كارا
 ديمتري - كارا يوفان - كارا أوجلان (٤) - كارا حمزة - كارا جيوز (٣)
 - كارا جيوز ايدين إسكندر - كارا جيوز أوجلان لار - كارا جيوز توتويكو -
 كارادجا (٤) - كارلي - كاستابا - كاستوريان، قاسم - كاسينو (؟)
 - كاسيكي - كابشير محمود كيما نشجي هيزير، كيليش، كيراندريا -
 كيركاراس - كيرياك - كيرياكي - كيرياكو - كيتان - كيرشو - كليمو
 - كودجا باراك - كودجا محمود - كودجا هازار، كويلي، كويوكو -
 كويو (٣) - كوي شين، كولي - كوفين - كوستا - كوستادين (٣)
 - كوستاس - كوستو - كوشبار - كوشتا، كراجوي (٢) - كرايكو
 (؟) - كراشايكو، كوكيش، كولا جيوزد كولاك استيبان، كوما نيكولا
 - كومان (٢) - كوريز (؟) - كيرت - كورتاك - كوشار - كوشاري
 - كوش - كوشي - كيوز بالابان - كيوز بوي - كيوز نوافك -
 كيوز بارد - كيوز ستيبان - كيوتشوك كاستو، لازار، لالاموس، لالا

(۲) - لالی - لالکو - لامبو - لاسکاری - لولا - لوکا، مافزاری، مالکوش، ماما لاسین - ماناسیا (۲) - مانجینا - مانو (۲) - مانول -، میر - مارکو -، مارکو (۲) - مارکو مصطفی، مارتین - مارتو - ما «ی» ستور نیکولا - ماستوریان (۳)، ماتو - ماتوش، محمود، میلوش باشتا - میلوش بیرشیا، محمد میلاهرین، مایلی - میلکو، میرکشا، محل «میہال» (۲) - میهو (۶) - میهو بیلونا - میهوس، موتو، مظفر - مظفر دوکا - مظفر افندی، موزیک «ی»، مراد، موسی (۹)، مُسَلَم مصطفی، مسلمان کارا حمزة بن عبد الله - مسلمان بیشو - مسلمان خورخای، مصطفی (۳) - موسترا - موهوس، نعیم کارادجا، ناکو، ناراندجی، نالدجی قاسم، ناسوه، نیسران، نیکولا (۱۴) - نیکولا کیشیش، نینی، نوافک (۲)، اولیفر (۲)، اوروک، باجوسلو، باندروبا (؟)، بازو، باراسکیف، باروس باسکال، باتی، باشان، بیو (۵)، بنشو، بیتکو - بیتروس، بیشی، بیرکو، بیناری اوجولار، بلاف، بریزوا (۲)، برودان، بولیسترا، بریو، راد (۳) - رادو ساف - رادو سلاف - رادول، رایان، رایکو، (۴) - رایو - رالی، رمضان (۲)، رسیم، ریبیکا، ریوس موسوس، ریشا - ریشالو، روند (؟)، ساکی، سارة کونستاندین، سارکو، سیدی، سیفر کاستو، شاملولار، شیزو، شیو، شیرمیرو (۳) - شیرمیرد بانشو، شیشو، شوموس، شارکو، سیفی دیلی بیلینا، سیلین، سیماریسا حکیم، سیمکو، سیمو زیرکر، سینادین، سینان (۲)، سیروفین (؟)، سوکوفالی (؟) بک، ستیبان، سُلیمان، صوفی مصطفی، سوهو جارلو، تازیل، تاسوس، تاتار (۴)

- تاتاس - تاتو (٢) - تاتوس (٣) - تاتوشي - تاتوش - تاتوشين
 (٢) - تاشو، تيفيكي، تيتو، تيجران، تيمرجي هزير، توماس، تودور
 (٧)، تروشانلو، تسوتسو لاسي، توين رايكو، تورالي (٢)، تورشانبا،
 أوجلاش - أوجليش - أوجرين (٢)، نوفكو، فاردار - فاردو، فاسيل
 (٢)، فلاد - فلادين يانو - فلاداك شوشوي، فلايكو (٢)، فالايا،
 فوجوس بوتاش، فوى فودا، فرانكا، فالكاشين، زيزو (؟) زوبان،
 ولاتار، زوراليا، ياكو، ياند، ياني (٣) - ياني شاكال - ياني شيروز -
 يانكو (٣) - يانكوس - يانكولا - يانو (٣)، ياراماز، ياركود، يهشي،
 ياشكو، يايان ديمو - يوفان (١١) - يوفكوديوجا، يونس (٢)، يورجي
 - يرجى كالوير - يرجى بانديم - يورجو - يورجو إلاد (؟). بوشي،
 يوريو «بوريو»، يوسف - يوسف أوجولار، يوهينو.

٣-٨ القانون المتعلق بالغجر في مقاطعة روميليا

صدر القانون الخاص بالغجر في مقاطعة روميليا بمعرفة السلطان سليمان الأول «العظيم» عام ١٥٣٠ م، ويساعدنا في الوصول لفهم أفضل للمعلومات المتجمعة من سجلات الضرائب القديمة، حيث ينص هذا القانون على نقاط منها:

١ - يدفع الغجر المسلمون من مدن استانبول وإيدراين وأي مكان آخر في روميليا مبلغ ٢٢ أكشه عن كل أسرة ولكل فرد غير متزوج، والغجري «المسيحي» يسدد ٢٥ أكشه، أما بالنسبة للأرامل، فالواحدة منهن تدفع أكشه واحدة فقط ضريبة تسمى هنا «الرسم».

٢ - الزوجات «من الغجر» القاطنات استانبول وإيدراين فيليبسي وصوفيا

واحترفن مهناً غير قانونية يدفعن ١٠٠ أكشه جملة كل شهر للسلطات القضائية.

٣ - يدفع الفجر رسوم الزواج والغرامات المقررة للجرائم والأعمال غير الشرعية مثل بقية الرعايا وفقاً لما يحدده القانون.

٤ - الفجر الذين يُبدون عناداً ويجولون بعيداً عن مقاطعاتهم الرسمية أو يستخفون بمقاطعات أخرى أو بالأفنية الخلفية للمنازل، يجب العثور عليهم وتحذيرهم ومعاقتهم بحزم وإعادتهم إلى مقاطعاتهم، ويتم تكليف قادة جماعاتهم وعمد قراهم، بالإضافة إلى آخرين من المخصصين بتلك المهام بالعثور عليهم وإعادتهم وهذا واجب التنفيذ، حتى يكونوا موجودين دونما إخفاء لأماكن إقامتهم عند استحقاق الضريبة للسلطان أو لوجوب دفع التزامات أخرى.

٥ - الغرامات والضرائب المعتادة والجزاءات الموقعة في جرائم الاعتداء الخطيرة بالإضافة إلى ضريبة البادوهافا « غرامات العقوبات الشخصية المفروضة على الفجر داخل السنجقية أو المقاطعة تخص رئيس تلك السنجقية، ولا يتدخل أي مسؤول من الإدارة المحلية أو الجيش في هذا الشأن، ويستثنى من ذلك الفجر الذين تم تسجيلهم كأقنان أرض في إقطاعيات وأراضي السلطان.

٦ - تجمع الضرائب المفروضة على الفجر في الأراضي الإقطاعية المذكورة عالياً من زعيم الرعية بالمنطقة، أو رئيس الفجر بالسنجقية، أو رؤساء الإقليم في كل مقاطعة، وليس للشرطة أو المسؤولين الآخرين أي حق في التدخل في أمورهم.

٧ - إذا انتقل الفجر المسلمون مع فجر غير مسلمين وعاشوا واندمجوا معهم، يجب تحذيرهم، وبعد إنزال العقوبة بهم، يقوم الفجر غير المسلمين

بسداد الضريبة كالمعتاد .

٨ - الفجر الذين يقعون ضمن ملكية حددتها إرادة السلطان عليهم سداد ضريبة السلطان فقط (هاراش بادي شاهي) ولا يدفعون ضريبة الأرض وبقية الضرائب المعتادة الأخرى .

٩ - يدفع فجر مقاطعتي برانيشيفو وسميديريفو مبلغ ٨٠ أكشه عن كل أسرة .

١٠ - يقوم زعيم الفجر في مقاطعة نيكوبول (في زمن الحرب) بالخدمة في هذا الإقليم .

١١ - يقوم فجر نيكوبول - الذين يدفعون ضريبة الأرض عن كل عائلة - بسداد ٦ أكشه لمثليهم المعينين كرسوم معادلة .

١٢ - يقوم زعماء الفجر في منطقة نيش (وذلك في زمن الحرب) بالخدمة في إقليم سميديريفو ، ويقوم باقي مسؤولي الإقطاعية بالخدمة في إقليم الباشا .

ويشير ذلك القانون مرة أخرى إلى الوضع الخاص للفجر بالنسبة للمجموعتين الرئيسيتين بالإمبراطورية العثمانية ويقصد بهما جماعة المؤمنين (المسلمين) وجماعة الرعايا (المسيحيين) وهو يؤكد أن الفجر المسلمين وتحديدًا رؤوس العائلات والرجال غير المتزوجين كانوا يدفعون ٢٢ أكشه بينما كان غير المسلمين يدفعون ٢٥ أكشه وعلاوة على ذلك كانت كلتا المجموعتين تدفعان رسوم الزواج وغرامات الجرائم والمخالفات مثلما يدفعها بقية الرعية تماما ، أي من هذا المنظور لم يكن هناك أي اختلاف ذي شأن بينهم ، بالإضافة إلى أن التمايز بين الفئات المختلفة من

الفجر، مع استثناء هؤلاء المنتمين لما يسمى سنجقيات الفجر، فلم يكن واضحاً ولا محدداً بصورة ملموسة كما لم يكن واضحاً من ذلك النص - أيضاً - ما إذا كان أولئك المدعوون «زعماء للفجر» من مقاطعة نيكوبول، وعليهم التزامات حربية وأعضاء في الإدارة العسكرية، هم من الفجر حقيقة أم لا؟ ويكشف ذلك القانون كذلك طموح الإدارة العثمانية في ضمان تجميع هذه الضرائب كاملة من كل فرد بما في ذلك الفجر الرُّحل الذين يجب توجيه انتباه السلطات الضريبية نحوهم بشكل خاص وقد تم تعيين عدد من أعضاء جماعات الفجر مسؤولين عن جمع الضرائب كضمان بأنهم سوف يسلمونها في موعدها بالإضافة إلى مسؤوليتهم عن عدم سدادها للسلطات ونتيجة لذلك علينا ألا نندهش إزاء وجود حقوق معينة للحكم الذاتي، ووجود استقلال نسبي تشريعي ضمنه القانون للفجر، وقد تأكد ذلك الوضع بأدلة أكثر وضوحاً، منها مثلاً صدور فرمان من السلطان سليم الثاني عام ١٥٧٤ م الذي يجبر عمال المناجم الفجر من منطقة بانيا لوقا - الذين يتمتعون بامتيازات خاصة - على تقسيم أنفسهم في جماعات كل واحدة منها تتكون من خمسين فرداً وتختار كل جماعة رئيسها الذي سيكون مسؤولاً عنها أمام السلطات.. وينص ذلك الفرمان على الآتي:

تُعد جماعات الفجر الموجودة بمنطقة البوسنة معفاة تماماً من الضريبة الشخصية ومن الضرائب الوقتية الأخرى (تكاليف اليورفي) ومن الضرائب الإضافية (أفارينز)، وبالنسبة للفجر المذكورين عليه يجب انتخاب فرد واحد لكل مجموعة مشكلة من خمسين فرداً ليكون قائداً

لها (باشي جماعت) وليس لأحد أن يتدخل في شؤونه أو يحد من سلطته بأي شكل، ولو خرق أي شخص القانون تتخذ إجراءات اعتقاله بعد توفير الضمانات بواسطة الجماعة وبواسطة قائده، وتنعقد جلسة استماع شفوية حول الموضوع. وقد تقرر وجوب اشتغال الفجر في أعمال الحفر بالقرب من كامينجراد على أن يتم مدهم بمتطلبات حياتهم اليومية، وهذا ينطبق أيضاً على الجماعة التي تقيم خارج نوفي بازار (يني بازار)، وعلاوة على ذلك، (فإني أمر أنه بمجرد وصول هذا فرمان السلطاني طرفكم، عليكم أن تبحثوا تلك المشكلة، وعليكم أن تتأكدوا بدقة ما إذا كان الفجر المذكورون عاليه قادرين على العمل في تلك الحفائر على أساس أنهم معافون من الضريبة كما هو موضح سابقاً، وعليكم طلب المشورة إذا عنت لكم ملاءمتها من الأشخاص المناسبين الذين يثق فيهم السلطان، وبعد هذا يتوجب عليكم تسجيل وتصنيف الفجر محل البحث في سجلات بشكل دقيق بقدر الإمكان وإرسال تفاصيل الموقف لنا).

٣-٩ فجر السنجق - الفجر في الجيش العثماني

يؤكد القانون المذكور سابقاً تمايز الإدارة الخاصة والحالة القانونية والحقوق الممتدة والحكم الذاتي لأولئك الناس الذين يعيشون في سنجقية الفجر (ليفا القبطيان) وكان هناك كذلك قانون خاص للسنجقية يتعلق بقائد سنجقية الفجر ١٥٤١م يكرر بشكل أساسي - ولكن بتفصيل أكثر - البنود الأساسية للقانون المذكور أعلاه، وفي تلك

الحالة لا تستخدم كلمة سنجقية على أنها وحدة تحديد لمساحة أرضية، وإنما تُستخدم بمعنى جماعة من الأهالي الفجر الذين يقدمون معاونات خاصة في خدمة الجيش، حيث ينقسمون داخل السنجقية إلى سرايا مع وحداتها المعاونة (الياماك) ويكون لها قواعدها بالقرب من الحصون العثمانية، وعلى رأس كل مجموعة يأتي القائد غير الفجري (مير ليفا) ويكون مسؤولاً عن أربعة من الضباط وعن أحد عشر من العرفاء، ويقوم زعيم الفجر (رئيس سنجقية) في مدينة كيرك كليس (وهي موجودة بتركيا الحديثة الآن) وتشكل من عائلات الفجر في هيرابولو وفيزا وكيشان وكورلو وبونار هيسار وديموتيك وجيومور جينا وفير وايسكي زارا ويانبولي ومناطق أخرى، أساساً تمثله منطقة ثراس الحالية، ولقاء خدماتهم تسلمت تلك الجماعات - وعددها ٥٤٣ - ما جملته ٤٤٩ قطعة أرض في سبع عشرة منطقة من روميليا، وهذه التطبيقات نُفذت أصلاً في إقليم أناتوليا (الأناضول) لكن تم تعديلها وتطبيقها بصورة أوسع على الفجر في منطقة البلقان وقد أدى أعضاء تلك الجماعات أعمالاً معاونة للواجبات العسكرية، وليس في النشاط الحربي ذاته، كما أن الفجر تم تجنيدهم في الجيش، حيث يوجد دليل من عام ١٥٦٦ م على أن بعضاً من جماعات دافعي الضرائب قد استدعوا لأداء الواجب العسكري (الوجاق) وهم من الفجر المسلمين وبالإضافة إلى عدد كبير من المجندين من مربى الماشية الأتراك (اليوروك) الذين أتوا للبلقان من آسيا الصغرى في ذلك العصر، وقد أحصى بول رايكوت ما بين ٤٧٢١ إلى ٥٠٠٠ مجند من أمثال هؤلاء في الجيش العثماني خلال القرن

السابع عشر ، كان من بينهم ٥٢١ جندياً غجرياً ، وكان يتم تسجيل خمسة أفراد من بين كل ثلاثين فرداً في الجيش النظامي ، في حين يقوم الـ ٢٥ الباقيون بتوفير الخدمات المعاونة خلف خطوط الجبهة ، ولو كانت إحصاءات رايكوت صحيحة فلا بد أن الجيش العثماني كان يحوي ما بين ١٥٠٠٠ إلى ٢٠٠٠٠ من الفجر خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر .

وقد استمر استخدام الفجر في الجيش العثماني حتى نهاية القرن الثامن عشر ، إذ يذكر راهب صربي في تقاريره السرية التي كان يرسلها للجيش النمساوي عام ١٧٣٧م أن دفاع مدينة كوسوفو قد ترك بأيدي الفجر ، في حين قام الفجر مرة أخرى عام ١٧٨٨م بأداء دور في الدفاع عن كوسوفو ضد الغزاة النمساويين .

٣-١٠ الفجر الرُّحل

كانت العقوبات الموقعة على الفجر المسلمين الذين لم يستقروا (استمروا في حياة الترحال) بالإضافة إلى الفجر غير المسلمين مناقضة للمبدأ الأساسي في السياسة الضريبية للإمبراطورية العثمانية التي نصت على أن يسدد المسلمون ضرائب أقل من نظرائهم من المسيحيين أو اليهود ، وقد وضحت أسباب تلك السياسة من النص المذكور سابقاً والمتعلق بالفجر في مقاطعة روميليا الذي أصدره السلطان سليمان العظيم ، حيث جاء الشرح التفصيلي بأن الفجر الذين يتجولون خارج حدود مقاطعاتهم الشرعية يجب البحث عنهم وإعادةتهم حتى يمكن

ضمان وفائهم بالتزاماتهم الضريبية ولم تكن المشكلة في الأساس اختلاط الفجر المسلمين بأولئك من غير المسلمين لكن حقيقة كونهم في حالة ترحال يؤدي إلى عدم دفع ضرائبهم بانتظام، وفي هذا الاعتبار تأتي ملحوظة تم إلحاقها بسجل ضرائب عام ١٤٩٨م المذكور سابقاً واضحة الدلالة على ذلك، وهي تتعلق بجماعة (ماركو مصطفى) التي تتكون من المسلمين الذين اهتموا مؤخراً من المسيحية إلى الإسلام.

«إنه السلطان الذي أمر بأن يسدد المسلمون الذين يغادرون جماعاتهم ضريبة الأرض شأنهم شأن كل غير المسلمين.

وفي بعض الأحوال كانت السياسة الضريبية وسيلة لتنظيم حركة الفجر داخل حدود الإمبراطورية بالإضافة لكونها وسيلة لتغيير البنية الديموجرافية (السكانية) في بعض الأقاليم ففرمان السلطان الذي صدر عام ١٦٣٧م - على سبيل المثال - يصنف الضرائب والرسوم التي كان على الفجر دفعها كالتالي: ضريبة الرأس - ضريبة الأرض وضرائب أخرى (مثل اليوفا والكاشكون، والبادوهافا ونيرها)، وفي الجملة كان على الفجر المسلمين سداد ما قيمته ٦٥٠ أكشه، في حين كان غير المسلمين يدفعون ٧٢٠ أكشه، ولم يكن الاختلاف بين المجموعتين أكبر مما كان عليه في السنوات المبكرة وعلى أي حال ففي أمر السلطان الجديد (الصادر في العام التالي مباشرة ١٦٣٨م) ثبتت ضريبة الرأس على الفجر المسلمين مبلغ ٢٠٠ أكشه للمقيمين في منطقة روميليا، في حين لم يكن على الفجر المسلمين والجماعات المماثلة من الرُحل الذين وصلوا - حديثاً وقتها - في منطقة أناتوليا (الأناضول في آسيا الصغرى) دفع

هذه الضريبة ، كما كان مبلغ الضرائب والرسوم الأخرى التي كان يجب على هاتين المجموعتين دفعها مختلفاً كذلك ، وهذا تمايز لا نراه في مناطق أخرى .

وتعكس الوثائق العثمانية الباقية في تلك الفترة بتفصيل كبير رغبة الإدارة في إضافة السكان الفجر لسجلاتهم ودفعهم لسداد الضرائب المطلوبة ، حيث يتم تسجيل العمر والمهنة والعائلة مع العناصر الأخرى ، واعتادت تقسيمهم إلى مجموعات ضرائبية لكل منها رئيسها الاعتباري ، وتنقسم تلك المجموعات بدورها إلى وحدات أصغر على أساس الحي الذي يقطنه الفجر في كل قرية أو مدينة . ولكل من هذه المجموعات زعيمها الخاص والمعروف باسم (كيتودا) أو سيد الجماعة وهكذا يتم تطبيق مبدأ مسؤولية الجماعات المحدودة الذي كان نظاماً نموذجياً للتوجه العثماني نحو رعاياها داخل الإمبراطورية .

وتربط تلك الوثائق - دائماً - بين ضرائب الجماعة وبين وحدات أرضية معينة حتى في حالة وجود غجر رُحل ، وتشير إليهم باسم المتجولين (جيزيندي) لكن مدى نجاح وكمال احتواء أولئك الرُحل لم يكن واضحاً ، حيث يبين سجل عام ١٥٢٢م - ١٥٢٣م إحدى عشرة جماعة من الرُحل فقط مسجلة لأغراض ضرائبية في قرى معينة ، ومنها على سبيل المثال :

● أراضي إقطاعية مصطفى باشا .

● مقاطعة فيليببي :

جماعة بدو باشاف ابن بايو ، أتوا من صوفيا ويعيشون في قرية

ميركوفو مع الغجر المحليين تحت إدارة زعيم الغجر ، والعائلات المسيحية عددها سبع ، والدخل ٢١٠ أكشه .

● مقاطعة لوفشا :

جماعة بدو ميهو بيلونز ، موجودة في منطقة مستنقعات بيليفن ، وعدد العائلات المسيحية سبع والدخل ٢١٧ أكشه .

وتوضح وثيقة من عام ١٥٥١م رغبة الإدارة العثمانية في دفع أولئك الرُّحَل إلى انتهاج حياة مستقرة .

«تقوم جماعات الغجر بقيادة أنواع جيدة من الخيول ، ولا يستقرون في مكان بعينه وينتقلون من مدينة لأخرى ، ومن مكان لمكان ينهبون ويسرقون ، فيحدثون قلقاً ومشكلات للسكان وطالما لا توجد تعليمات منظمة لقيادة الخيول ولا حظر على امتلاك الصالح منها للقيادة ، فقد أصدرت تعليماتي أنه عند قدوم أي قبيلة غجرية تحت ظل السيادة العثمانية يجب إخطارها مقدماً أن أفرادها لن يمتطوا الجياد وإنما سيستخدمون الحمير والثيران بديلاً في تحركاتهم ، بالإضافة إلى نبذ حياة الترحال للاستقرار والعمل بالزراعة ، ومن الآن فصاعداً يجب إرغامهم على بيع خيولهم وإذا ما اعترض أحد تجب معاقبته بالسجن» .

وقمت إعادة تلك التعليمات عام ١٥٧٤م ومدت آثارها إلى لاعبي الأكروبات من الغجر باستانبول الذين منعوا من استخدام الخيول ، وعلى كل ، من الواضح أن هذه القواعد ومعها بعض تعليمات إدارية أخرى محتملة ومماثلة كفرمان ١٦٣٠م الذي أصدره السلطان مراد الرابع حاول به إرغام الغجر على الاستقرار والالتزام بمقار إقامة دائمة لم يكتب لها

النجاح ، ففي مجال التطبيق العملي كان محالاً إجبار كل الغجر الرُّحْل على الإقامة الدائمة ولم تنظر إليهم السلطات على أنهم يمثلون مشكلة خطيرة ، كما يوجد - على أي حال - دليل آخر لمعايير مغايرة من أجل تحقيق هذا الهدف الذي قدمناه هنا ، وهي تعليمات خاصة - على سبيل المثال - قد حُفظت لنا ، تصف كيفية التعامل مع الغجر الذين غالباً ما غيَّروا محال إقامتهم أي عاشوا حياة الترحال دوماً .

حيث يمكن قراءة أحد نصوص فرمان أصدره الحاكم الإقليمي لمقاطعة البوسنة عام ١٧٩٩م كالآتي : « في الماضي صدرت ضمانات بأنه ستصدر تعليمات منظمة تتعلق بكيفية استقرار الغجر بالمدن لكي يمتهنوا حرفاً محددة ولا يرحلون - برغم ذلك - فقد نما إلى علمنا أن مجموعة من الغجر المذكورين قد هجروا أعمالهم ويتجولون حول القرى ويرتكبون أعمالاً مخالفة مثل السرقة وإحراق الممتلكات وبهذا السلوك الأحمق يسببون الأذى للآخرين ، لذا أمر بأن يتم القبض على تلك المجموعة المذكورة آنفاً ومعاقبتها وفقاً للقانون حالما يتم كشفها وقت الجريمة .

وفي الحقيقة كان تسجيل الغجر في الوثائق الرسمية يتم فقط في حالة ارتباطه بالاستقرار المؤقت لهم (وهو عادة في الشتاء) ، وكان نموذج الترحال الفصلي -نسبة لفصول السنة- وغير المنتظم -هو الترحال خلال الفصل الدافئ ثم قضاء الشتاء في مكان واحد- غالباً في منطقة البلقان ، ولا ندري إذا ما كان ذلك النمط من الحياة والمعيشة قد جلبه الغجر معهم أم فرضته عليهم الظروف الاقتصادية والاجتماعية في البلقان ! وماذا كان دور الإدارة العثمانية -في هذا الشأن- آخذين في اعتبارنا تعميدها

ضم الفجر في سجلاتها الضريبية وربطهم بقرى معينة ، وعلى أي حال
تعكس أغلب المعلومات الواردة إلينا في تلك الفترة صورة حياة القبائل
الرَّحَّل أثناء وقوفهم لدى المناطق الآهلة بالناس .

ويمكن استخلاص بعض الأفكار عن حياة الفجر أثناء ترحالهم من
دلائل الإجراءات القانونية، التي منها -على سبيل المثال- الشكوى
المحفوظة من عام ١٦٣٤ م التي قدمها فلاحو سربتس باشا في منطقة
بيتولا القضائية :

« يأتي الفجر الرَّحَّل غالباً إلى قريتنا ويعيشون في المنازل
الخاوية والأجران ويسرقون الدجاج والحملان والغنم
والملابس ويقطعون الأشجار والغابات وهم يسببون لنا المشكلات ونحن
نلتمس منهم من المجيء إلى قريتنا » .

وكان قرار المحكمة توفيقياً حيث قالت « يمكن للفجر المجيء للقرية ،
لكن عليهم دفع قيمة ما تسببوا في إتلافه » وفي شكوى مماثلة
سُجِلَتْ - أيضاً في إجراءات متعلقة بالتقاضي في منطقة - بيتولا لكنها
تعود لعام ١٦٣٦ م ، كان فلاحو جابيان في بيتولا يشكون من وجود
الفجر المشردين والمشاكسين « الذين يسرقون ويتلفون حقول القرية »
وكان القرار - في هذه الحالة - مختلفاً عن حكم المحكمة السابق حيث
يحظر تحديداً على جماعات الفجر البقاء في تلك القرية بالإضافة للقرى
المجاورة .

٣-١١ توطين الفجر في ظل الإمبراطورية العثمانية

حدثت عمليات نشطة لتوطين الفجر في مدن وقرى البلقان، والفجر الذين استقروا عاشوا في أحياء خاصة بهم تسمى «المحلات»، وكان هذا مبدءاً أساسياً لكل جماعات الأقليات في الإمبراطورية، وكانت عملية التوطين شاملة لكنها بالطبع لم تشمل كل الفجر الذين يعيشون في ظل الإمبراطورية، وبجوار ذلك انتشر نمط جديد من الحياة شبه المتنقلة شيئاً فشيئاً، مع وجود قاعدة ثابتة لهم شتاء وحالة من التنقل بعيدة المدى في إطار حدود كل مقاطعة بصورة فعلية، وليس من الغريب أن نجد في سجلات العام ١٥٢٢م - ١٥٢٣م المذكورة آنفاً أن غالبية الفجر (بمن تم تصنيفهم كجماعات من الرُّحَل) لهم محال إقامة دائمة، وقد حدثت حالات توطين مماثلة في مقاطعة أناتوليا «الأناضول»، إذ لاحظ الرحالة العثماني الشهير إيفيليا سيلبي (١٦١١-١٦٧٩) أن أغلب الفجر الذين عاشوا هناك قد توطنوا، وذلك في القرن السابع عشر، وفي بعض الحالات ترك الفجر حرفهم التقليدية ليمتحنوا حرفة الزراعة التي مارسوها في إطار نظام الملكية الزراعية الإقطاعي أو إقطاعيات ضباط الجيش ذلك النظام الذي كان قائماً حينذاك.

مثلاً ففي سجل للإقطاعيات في إقليم صوفيا - يعود إلى عامي ١٤٤٥م - ١٤٤٦م، توجد معلومات مفصلة حول إقطاعية يملكها علي الابن بالتبني لكارا حاجي والتي انتقلت إلى «سات» ابن علي الإدريسي عام ١٤٤٧م والتي شملت قرى أورلاندوفتش وهي جزء من صوفيا اليوم وراكوفيتسا (في مقاطعة صوفيا) وجرابا (في مقاطعة بيروت)

ودابيجيف (ربما قد تكون اختفت) ، ومن المستحق أن نوجه للأخيرة اهتماما خاصا وهي الأصغر (قرية دابيجيف) فهي تتكون من ١٥ عائلة مكتملة وثلاث أرامل من العوائل الذين يخصصهم السجل تحديدا «بأنهم من الغجر» وبمقارنة نسب الدخل بين رؤساء من قريتي أورلاندوفيتشي وجرايا، نجد أنه بينما يحصل الرئيس في كل من قريتي أورلاندوفيتش وجرايا متوسط دخل قدره ٩١ أكشه من كل عائلة أو أسرة، وفي راكوفيتسا على متوسط قدرة ٤٣ أكشه، إلا أنه يحصل على ١٦ أكشه من كل أسرة في دابيجيف فقط مما يعني أن الغجر في الإقطاعات يقعون في أدنى السلم الاجتماعي معيشة.

وبعد عقود قليلة لاحقة ذكرت قرية دبيجيف ثانية في أحد سجلات الإقطاعات المملوكة لسات ابن علي في مقاطعة صوفيا وساموكوف تعود -بالكاد- إلى الربع الثالث من القرن الخامس عشر، إذ تؤكد السجلات مرة أخرى على «أنهم من الغجر» لكنها تذكر خمس عائلات فقط وهم عائلة كالويان ابن نيكولا وكالومان ابن راد وكويو ابن ليسكو وجوري ابن راديتسا وفوديل ابن عبد الله، ووضح أن عدد دافعي الضرائب قد تقلص بسبب انتقالهم إلى أراضٍ إقطاعية أخرى على سبيل الاحتمال، كما يمكن ملاحظة ظهور الأسماء الإسلامية - كذلك - إذ تعد تسمية «ابن عبد الله» نمطا قياسيا إسلاميا، وقد أستخدم - كما ذكرنا من قبل - للإشارة إلى المسلمين المهتدين حديثا. وجادل بعض المؤرخين (وبخاصة م.ت. جوك بيلجين) على الدليل المأخوذ من سجلات ١٥٢٢-١٥٢٣م (والذي ذكر فيه أن معلومات الرسوم المدفوعة للدولة على شكل إنتاج

زراعي منقوصة تماماً) بأن مشاركة الفجر في العمل الزراعي كان متقطعاً وفي معظم الحالات واصل الفجر احتفاظهم بمهن وحرف معينة، وعلى كل فأغلب المؤرخين يميلون للاعتقاد بأن لتلك الحالات الاستثنائية أسباباً يجب البحث عنها في الظروف الخاصة بالفجر وبالخصائص المحددة للنظام الضريبي العثماني الذي ارتبط باستخدام الأراضي، ويمكننا أن نذكر مثلاً لتأكيد ذلك من الممارسات المذكورة في قانون إقليم سيلسترا الذي يعود لعام ١٥٦٩ م حيث جاء ذكر جماعة من دافعي الضرائب الفجر يوجد فيها اثنتا عشرة عائلة وسبعة من دافعي الضرائب غير المتزوجين الذين تتضح التزاماتهم كما يأتي:

«الفجر الذين يتوقفون في الإقطاعية ويستعمرون قطعاً من أرضها يدفعون الرسوم والضرائب الخاصة بالأراضي ليد مالِك الأرض في حين يسددون باقي الضرائب المقررة في المقاطعة التي دفعوا فيها تلك الضرائب من قبل»

وقد ذكرت معلومات جاءت في سجلات الإجراءات القضائية لإقليم صوفيا من بداية القرن السابع عشر أن من بين تلك الضرائب التي كان يدفعها الفجر ضريبة «الانتقال» على بيع محال الإقامة والمقدرة على ٢٢ منزلاً وضريبة على «الأغنام» ولدينا هنا بالتحديد دليل على وجود محال إقامة دائمة وعلى درجة واضحة من الثراء بين الفجر، وهناك دليل آخر على وجود فجر أثرياء نسبياً ففي عام ١٦١١ قام الفجري ستيفان ببيع منزله في صوفيا بالإضافة إلى بيع محله وبعض أشجار الفاكهة مقابل ٢٤٠٠ أكشه.

٣-١٢ توزيع التزامات جمع الضرائب «نظام الملتمزم»

وبمرور الزمن بدأت ممارسة عمليات تقسيم عقود جمع الضرائب المستحقة على الفجر -بالإضافة للضرائب المستحقة على كل رعايا الإمبراطورية- في الاستقرار في ظل العثمانيين. وللغرابه فإن الممارسة المقبولة كانت مسؤولية جمع الضرائب تتوزع هبوطاً ليس فقط حتى مستوى الوكيل -الذي اشترى حق جمع تلك الضرائب- وإنما تتفرع مسؤولية إسنادها حتى يكلف بها ممثلو الفجر أنفسهم، فوفقاً لفرمان السلطان لعام ١٦٣٨م بشأن توزيع عقود جمع ضرائب الرأس من الفجر والمجتمعات البدوية الأخرى أن يكون لكل خمسين فرداً منهم من الخاضعين للضريبة «رؤوس العائلات» مسؤول واحد يسمى شيري باشي معيناً ليكون مسؤولاً عن عدم سداد الخاضعين للضريبة المستحقة وعلى المسؤول المعين توفير المبلغ المطلوب، ثم يكون له الحق في استرداده من أقارب ذلك المتهرب من الدفع.

ويمكن أن نجد دلائل أكثر تفصيلاً لنظام تحصيل الضرائب وبداية التغيرات التي حدثت لحالة الفجر الاجتماعية وأوضاعهم الضريبية في فرمان السلطان أحمد الأول الذي يعود إلى عام ١٦٠٤ - ١٦٠٥م الصادر إلى حكام أقاليم الباسان، فالونا، ديلفينو، يانينا ومقاطعات أياتوليا التي كانت إقطاعيات للسلطات المسلمة في أكارنينا، ووفقاً لذلك الفرمان منحت المسؤولية للقائد الحربي سليمان - مالك تلك الإقطاعية الضخمة - لدفع كل الضرائب المتنوعة عن الفترة من ١ مارس ١٦٠٤ وحتى ١ مارس ١٦٠٥م لخزانة السلطان مباشرة شاملة ضريبة الرأس وضريبة الأرض والرسوم والغرامات والجزاءات بالإضافة لباقي العوائد التي

يجب جمعها من الفجر المقيمين والمسجلين كدافعي ضرائب ، وكذلك من قاطني الخيام منهم الذين كانوا رُحَلا ولم يسجلوا كدافعي ضرائب ، ووجب على أولئك المسؤولين المحليين التعاون في جمع الضرائب التي فرضت بمبلغ ١٨٠ أسيري (١) للمسلمين و ٢٥٠ أسيري للمسيحيين ، مما يعني أن تغيّرا ما حدث لمعيار فرض الضرائب لكل الفجر وليس فقط لأولئك الذين ضمتهم المجتمعات الخاضعة للضريبة ، وليس لأحد أن يضع عراقيل أو عوائق أمام تنفيذ هذا العمل ، وأن على المسؤولين التأكد من عدم وجود أي شخص يشكل اضطرابا أو قهرا للمجموعات العرقية في تلك المسألة .»

وقد وجه الفرمان عناية خاصة للمشكلات التي تواجه القبائل الرُّحَل من الفجر ، لو انتقلوا ولم يسددوا ما عليهم من ضريبة ، إذ على السلطات القضائية المحلية إيجادهم وإجبارهم على سداد ضرائبهم وتغريمهم علاوة على ذلك مبلغ ٣٠٠ أسيري^(١) ، وأن غيابهم عن المقاطعة لا يجب استخدامه مبررا لعدم السداد ، كما تعامل الفرمان أيضا مع المشكلات التي قد تنشأ من سداد الضرائب بالنسبة لنوع النقود كذلك . وبالنسبة للفجر المقيمين تعامل الفرمان مع القضايا المتعلقة بالضرائب وطرق جمعها من أولئك المقيمين بالأرض المخصصة كأوقاف أو إقطاعيات بالإضافة إلى أنه ألزم الحكام ألا يسمحوا للإدارة العسكرية المحلية بمضايقة أو ظلم

1 - الأسيري وحدة صغيرة من العملة العثمانية صكت في استانبول في ظل

الإمبراطورية العثمانية . (المترجم) .

الغجر ، وذلك يبين أن سياسة ربط الغجر بالأرض وبالممتلكات في ذلك الوقت قد بدأت بصورة واضحة حيث يقول في موضع آخر : (يقوم بعض الإقطاعيين من ملاك الأراضي مثل الانكشارية والمواطنين الأصليين وباقي رجال الدولة بإخفاء الغجر المقيمين في منازلهم ومبانيهم ومزارعهم ، ولو كان ذلك يحدث حقيقة ، فاقبضوا عليهم وانفوههم ، وإذا لم ينصاعوا للأمر فأخطرونا بأسمائهم وبمقاطعاتهم) .

وقد أوضح الفرمان أن الدولة العثمانية قد بدأت بالفعل في إلغاء الامتيازات الضريبية التي اختصت بها فئات محددة من الغجر .
(وبالنسبة للمقيمين من الغجر الذين يقولون إنهم حدادون ووقادون^(١) وحراس للغابات ولذا فهم معفون من الرسوم والضرائب فلا تصدقوهم بشأن ذلك الإعفاء ، وإنما حصلوا منهم ما يتوجب عليهم دفعه وفقا للسجلات حتى آخر «مليم» ولا تسمحوا لهم بوضع عراقيل أمام ذلك) .

وقد تأكدت عمليات توزيع وتقسيم مسؤوليات جمع الضرائب من الغجر في السجلات الضريبية لإقليم صوفيا عام ١٦٠٩م (عندما كان المسؤول المعين هو علي هليل إسكندر) وبالنسبة لأعوام ١٦١٠م و١٦١٨م نجد أن تلك الممارسات موصوفة في فرمان السلطان لعام ١٦٨٤م الصادر لحكام أقاليم تسالونيكي* بيرويا وجينيتا الذي أكد حق

2 - الوقاد : الذي يقوم بعملية إحراق الفحم في الآلات البخارية وضمان تغذية الآلة

به . (المترجم) .

الحاكم حسين في جمع ضريبة الرأس والضرائب الأخرى من الفجر في تلك الأقاليم، وقد وصلت جملة تلك الضرائب مبلغ ٦٥٠ أسيري لكل مسلم و ٧٢٠ أسيري لكل مسيحي وكانت فترة جمع تلك الضرائب محدودة خلال شهر (بين ٩ نوفمبر و ٧ ديسمبر) ومن الجدير بالذكر أن نرى التقرير المقدم لجمع هذه الضرائب من الفجر بذلك الأسلوب رغم عدم وجوب النظر إليه ظاهرياً يقول :

«إن هذا الجنس من الناس يعيش منفصلاً ويكون محدوداً في أعداده، لكن له كافة الاحترام، ولندع فرداً واحداً - دون عائق أمامه - يجمع تلك الضرائب والرسوم، المخصصة للميزانية العامة المكونة من الضرائب والغرامات الموقعة بسبب الهروب أو ارتكاب جريمة، وفوق كل ذلك لا تسمحوا لأي مسؤولين كبار أو إداريين أو موظفين مدنيين أو ضباط شرطة أو مراسلين أو ممثلي المؤسسات الدينية أو من أملاك السلطان أو ملاك الأرض أو أي شيء وأي أشخاص آخرين بالتدخل في شؤون الفجر، أبقوا الفجر بعيدين عن الأفعال الخاطئة ضد الدولة، ولا توقعوا بهم ظلماً أو قهراً بأن تحملوهم أكثر مما يطلب منهم هذا الفرمان السلطاني».

٣-١٣ كيف اكتسب الفجر عيشهم؟

عمل الفجر في ظل الإمبراطورية العثمانية في عديد من المهن، ففي السجل الضريبي لعام ١٥٢٢م - ١٥٢٣م غالباً ما تم تسجيل الفجر كموسيقيين (سازندي) وفي بعض الحالات نجد كل جماعة الفجر الضريبية مسجلة بتمامها كموسيقيين، وعلى سبيل المثال، جماعة كارا

أوجلان بن أرخ من غابة فرانيا، وفي حالات أخرى، كان زعيم الجماعة موسيقياً مثل بورو بن كيرياك من ميلنيك وديف (أو ديو) ابن أفراد من إيتوس وعازف الكمان هيزير من منطقة إيني شلهير وآخرين. والانتشار الواسع لتلك الحرفة بين الفجر تم توكيده فيما بعد ببراهين تاريخية، بما في ذلك الوصف المتعدد لموسيقى الفجر الذي سجله الرحالة من أمثلة كوكليت وهو يصف بلجراد عام ١٦٥٨م ذاكراً:

(في كل مكان يقوم الفجر رجالاً ونساء بالعزف والغناء بسرور كبير مستخدمين آلات الفيولين والأشبه بآلات السيمبالو والطمبورة والتي تشبه الجيتار لكنها تحتوي على خمسة أوتار فقط، وقد استمتعنا بتلك التسلية طوال رحلتنا كلها).

كانت الآلة الموسيقية الأكثر ذكراً في المصادر المختلفة هي آلات الزورناس - نوع من آلة ألبوا - ثم آلات النقر (الطبول) والثلاثي المكون من عازفين اثنين للزورناس وقارع واحد للطلبل هو المشهد الشائع في البلقان حتى اليوم، لكن هناك آلات أخرى كانت تستخدم، وأغلبها آلات التامبورين وفي أزمنة أكثر حداثة استخدمت آلات وترية مختلفة، وجنباً بجنب مع هذا هناك أدلة أكثر حول أشكال فرق الموسيقيين الفجر، مثلاً وجود عازفين اثنين للكمان مع لاعبين اثنين للتامبورين مع مجموعة من الراقصين (وهم في الأساس من النساء يطلق عليهن غالباً الشنجي وأحياناً النساء اليهود) اللواتي كن يقمن بتسلية الموظفين الأتراك والتسرية عنهم (بالإضافة للرحالة الأجانب) في الحانات أو في منازلهم ويبقى سؤال لا إجابة له بصورة كافية، وهو مسألة وجود الفجر الحدادين

في الإمبراطورية العثمانية، فالفجر في كثير من بقاع العالم معروفون بمهنة الحدادة وكان لهذه المهنة عندهم تقاليد عريقة، وقد حافظوا عليها جيداً في البلقان حتى اليوم حيث نجد رجالاً من الفجر مهنتهم المتوارثة هي - بالدقة - الحدادة وأعمال تشكيل الحديد بشكل عام، فإذا ما وضعنا ذلك في اعتبارنا يصبح مثيراً للدهشة حقاً عدم شيوع الحدادين من الفجر نسبياً في فترات معينة وعلى سبيل المثال نجد في السجل الذي نقتبس منه كثيراً - عن ضرائب عام ١٥٢٢م - ١٥٢٣م فرداً واحداً تم تصنيفه كحداد وأربعة آخرين في أعمال مختلفة تتعلق بالحدادة (وكانت الأسماء المستخدمة لهذه الأعمال هي شيلنجير وتيمورجي وحداد) ومما لا شك فيه أنه كان عدد كبير من الحرفيين الذين وجدوا في سنجقية الفجر من الحدادين فعلاً لكن أعدادهم كانت محدودة وخدموا بأعمالهم الجيش فقط وليس الأهالي داخل الإمبراطورية ككل، ويمكن وضع عدد متنوع من الفروض مقدماً لشرح تلك المناقضة لكنك لا تجد فرضاً واحداً منها يبدو مقنعاً، وهذا ما يعد أكثر إرباكاً - في قراءة تلك الفترة - خاصة مع وجود دليل أكثر قدماً يعود للقرن الخامس عشر.

بشأن الفجر الحدادين وعمال تشكيل الحديد، وأي دليل يتعلق بأولئك الحدادين (مأخوذ من السجلات الضريبية أو المصادر التاريخية الأخرى) يصبح أكثر شمولاً - مرة أخرى - من القرن السابع عشر فصاعداً، ففي السجل الضريبي لعامي ١٥٢٢م - ١٥٢٣م ووسط الحرف الأخرى للفجر بخلاف الموسيقيين نجد أيضاً صنّاع العلب الصفيح وصنّاع الذهب وصنّاع السيوف ومواقد الطهي وصنّاع حذوات الخيل والأحذية «وكافة

الإسكافية» وصناع المسامير والجلود والخياطين «الترزية» وناسجي الغزل والسجاد والصباغين وتجار الحديد وصناع الحلفا، وبائعى الأجبان والجزارين والكبابجية والبستانيين وسائقي البغال والحراس وحراس السجون والخدم، والسعاة، ومربي القروود وحفاري الآبار وآخرين شاملة ضباط الجيش المؤقتين ورجال الانكشارية ورجال الشرطة (سوبا شيز) وأطباء وجراحين وكهنة، ومن الصعب التيقن من المدى الذي تفترض به تلك الحرف وجود حرف تقليدية، وإلى أي مدى تم التمكن من إجادتها حديثا رغم أنه من الواضح أن عددا من تلك الحالات يشير إلى وجود الخبرة المهنية التقليدية لمجتمعات معينة من الفجر.

وهناك مصادر مهمة وهي الملاحظات التي دونتها الرحالة التي جاء ذكرها في الأعلى «إيفليا سيليبى» والتي حظيت بفرصة استخدام قائمة بيان لنقابات الحرفيين في استانبول، وهي قائمة أعدت بناءً على أوامر السلطان مراد الرابع (١٦٢٣ - ١٦٤٠ م) وقت ما كان الفجر يعيشون في حي بالاطا، بمجرد استقرارهم هناك على يد محمد الثاني وقت غزو المدينة، وقد احتوت القائمة على سبع وخمسين نقابة، وجاء أول ذكر للفجر في النقابة العاشرة الخاصة بمربي الدبة والتي كانت تشتمل على ما جملته سبعين رجلا، وفي النقابة الخامسة عشرة نجد تجار الجياد (جامبار) ٣٠٠ رجل، وكما كتبت إيفليا سيليبى:

(تجار الجياد هؤلاء أثرياء يملك كل واحد منهم إسطبلات للخيول تقدر جيادها من ٤٠ إلى ٥٠ جواداً عربياً، وأغلبهم من الفجر رغم وجود آخرين ينتمون لأجناس أخرى).

واختصت النقابة الثالثة والأربعين بالموسيقيين وتتكون من ثلاثمائة فرد معظمهم - كذلك - من الفجر، أما النقابة الخامسة والأربعين والتي تضم الممثلين وفناني التمثيل الصامت والراقصات، ولتلك النقابة اثنا عشر قسماً فرعياً أولهم يضم ٣٠٠٠ شخص يعيشون في حي بالاطا وأغلبهم من الفجر، والقسم الفرعي الثاني شمل ٣٠٠ صبي راقص يعيشون - أيضاً - في بالاطا، ووفقاً لما ذكرته إيفليا سيليبى من ملاحظات - ضمن الأعمال الوضيعة - نجد في الأقسام العشرة الفرعية الأخرى لتلك النقابة هناك بعض الفجر لكنهم قلة - وكان موجوداً بينهم بصورة دائمة اليونانيون والأرمنيون واليهود، وقد جاء ذكر الفجر آخر مرة في القائمة الشاملة لنقابة بائعي البوظة، وهو شراب مُختمر يصنع من نبات الذرة.

٣-١٤ الصراع مع القانون

شملت حرف الفجر بعضاً مما يعد غير قانوني أمام الإدارة العثمانية، ففي عديد من الحالات خاصة عندما يقيمون في المدن، كان الفجر يكسبون عيشهم بامتهان «أعمال قدرة» بشكل أساسي، مثل الأعمال المتنوعة التي لا تحتاج لمهارات أو التسول وأحياناً يحترفون أيضاً عملاً يخرق قوانين الإمبراطورية وهناك حالات اشتبك فيها الفجر في صراعات متعددة مع السكان المحليين تم حلها بواسطة النظام القانوني العثماني وينص تقرير كتب في شأن إجراءات قانونية بمنطقة صوفيا من يونيو ١٥٥٠م على الآتي:

«استدعى الراهب نيكوديم شخصاً غجرياً اسمه درويش بن عبد الله أمام

محكمة الشريعة الإسلامية وقاضاه في حضوره قائلاً :

«إن المدعو درويش باعني حصاناً أسود مقابل ١٥٨ أكشه، وقيل إن الحصان كان بصحة جيدة وسليماً (لكن في الحقيقة) كانت عينه اليمنى قد ذهب إبصارها ولا يمكنه الرؤية بها ، إذن يوجد به عيب وأريد إعادته إليه و..... وبعد شرح الدعوى التي عرضت بهذه

الصورة انتقلت القضية إلى المدعو درويش الذي قام بالرد :

«لقد عاين المدعى المذكور عيب الحصان الذي يتحدث عنه وقبله

بعيبه...» .

وفي هذا الموقف كان على درويش أن يقدم دليلاً على صدقه في إفادته ، وحيث إنه كان غير قادر على تقديم دليل على كلامه ، طلب من الراهب المذكور أن يقسم أنه « لم يقبل الحصان موضوع الدعوى على عيبه » ، وقام الراهب بأداء القسم ثم حكمت المحكمة بإعادة الحصان إلى البائع المذكور.

١٥-٣ نساء ساقطات

ومما يستحق الذكر ، وجود حرفة نادرة إلى حد ما ، وهي مهنة تمارسها نساء الفجر في الإمبراطورية العثمانية ، ففي القانون المذكور آنفاً والمتعلق بالفجر في مقاطعة روميليا ، أشار إلى أن « النساء الفجر في مقاطعات أستانبول وإيدراين وفيلبي وصوفيا » اللواتي يشتغلن في مهن غير قانونية يجب أن يدفعن ١٠٠ أكشه جملة في كل شهر » .

ويشير هذا التعبير الكنائي إلى العاهرات « النساء الساقطات » كما

أنه واضح كذلك في الضريبة المرتفعة بصورة غير طبيعية التي عليهن دفعها، وتصنيف الغرامة كضريبة هي صياغة تستخدم -حتى اليوم- في بلاد البلقان كوسيلة لتقنين الأعمال غير القانونية.

ويتكرر تأكيد وجود تلك الجماعات من النساء الداعرات من الفجر في مصادر تاريخية أخرى تشمل مذكرات الرحالة الأوروبيين، الذين تجولوا عبر الإمبراطورية لأسباب متعددة، ونذكر مثلاً من كتابات الكابتن شاد (١٧٤٠م - ١٧٤١):

«في هاسالار بمقاطعة رازجراد قابلنا أول امرأتين داعرتين في الإمبراطورية العثمانية، كانتا امرأتين لعوبتين من قبيلة تنتمي لأكثر الأمم بؤساً ممن يدعونهم في فرنسا «مصريين»؟! ...»

كانتا تنتظران.... في أردية رائعة البهاء وأكثر سمرة من أي امرأة مسلمة ممن تعيش في تلك البقاع، تغطيان رأسيهما بقماش حريري، وكانت كل ملابسهما أيضاً من الحرير...»،

● الرحالة الأوروبيون :

تعد ملاحظات الرحالة الأوروبيين على حياة الفجر في ظل الإمبراطورية العثمانية شديدة القيمة كمصدر للمؤرخين، وبالطبع لم تكن مثل تلك الملاحظات التي يدونها غرباء دقيقة دائماً أو متوافقة مع الوضع الحقيقي لشؤون الفجر، ورغم هذا فهي تكشف جوانب مثيرة في حياتهم، مما لا تسجله المصادر المحلية دائماً بل الأجانب هم من يلاحظونها فقط، وقد ذكرت كتابات الإنجليزي هنري بلاوت في النصف الأول من القرن السابع عشر الملاحظات الآتية :

«لست واحداً ممن يعتبر هؤلاء الناس أشراراً، لكنهم يتميزون عن الآخرين بتفاهتهم وكسلهم، ولكونهم نفاية المجتمع لا محصلة لأجيال متتابعة، لأنهم يخوضون في الغشاء ويتعرضون دوماً للشمس، فهم أكثر سمنة من الآخرين، وهم موجودون في كل مدينة تركية، لكنهم لا يقومون بالسرقة مثل الفجر الموجودين لدينا لأنهم يخافون العقوبات الصارمة وهم يتنبؤون بمستقبلك بمثل تلك الطريقة الخادعة التي يقوم بها الفجر عندنا ويقنعون - أيضاً - بالقليل، وهم يُستخدمون - غالباً - في أداء الأعمال الحقيرة مثل كناسي الشوارع والحدادين والإسكافين وصناع العلب الصفيح وما أشبه، وقليل منهم من تم اختتانه ولا أحد يقوم بتعميدهم، ويرتدون الخلق البالية بسعادة، لكنهم لا يندهشون (لأحوالهم)، ويعيشون في أكواخ ومنازل صغيرة في ضواحي المدن محاطين بالاحتقار».

كما كتب إدوارد براون - وهو إنجليزي آخر - سافر عبر الإمبراطورية العثمانية:

«أقوياء وشجعان، وكان بعضهم لصوصاً ويوجد منهم الكثير في المجر والصرب وبلغاريا ومقدونيا، وأنا رأيت كثيراً منهم - أيضاً - في لاريسا والمناطق الأخرى في ثيسالي، وهم أكثر انتشاراً في المدن، حيث يدبرون معيشتهم باحتراف الأعمال الحقيرة والاتجار بالأعمال الحرفية اليدوية، وكثير منهم يصبغون أياديهم وأرجلهم بالحناء الحمراء، ويعدون ذلك تخفيفاً لتلك الأعضاء من لسعة البرد، وبعضهم يصبغ أطراف شعره، ورغم انتشارهم مدى بعيداً إلا أننا نعتقد أنهم أتوا أصلاً من فالاشيا ومناطقها المجاورة ونظن أن أغلبهم من جواسيس الترك».

٣-١٦ الحالة المدنية للفجر

كان السؤال الذي يشور غالباً بالنسبة للفجر، هو ما هي الحالة المدنية التي كانوا عليها في ظل الإمبراطورية العثمانية؟ ولكن الإجابة عن ذلك السؤال لا تأتي بسهولة. فالمسألة معقدة إذ يحتل الفجر حقيقة مكانة غريبة في البناء الاجتماعي والإداري الشامل للإمبراطورية، فالسكان - كما هو مذكور آنفاً - انقسموا إلى فئتين رئيسيتين هما المسلمون والرعايا، لكن الفجر لم يصنفوا في أي من هاتين الفئتين، إذ تم تمييزهم من خلال انتمائهم العرقي، كحالة نادرة في القوانين داخل الإمبراطورية العثمانية، برغم أن النظرة إلى اليهود كانت تشبه هذا إلى حد ما، وهذه المعاملة كانت نتيجة لممارستهم الدينية - على سبيل الاحتمال - وكما أوضحت إيفليا سيليبى «أنهم يحتفلون بعيد القيامة مع المسيحيين» ومع المسلمين يحتفلون بعيد الأضحى ومع اليهود بعيد الفصح، ولم تكن هناك فروق كبيرة بين الفجر المسلمين والفجر المسيحيين، سواءً بهدف فرض الضرائب أو لحالاتهم الاجتماعية ككل، وبشكل عام كانوا أقرب لمعاملة الرعايا المحليين في السكان مع بعض امتيازات ضئيلة للفجر المسلمين، ومنافع أكثر - لها اعتبارها - لمن يعملون في خدمة الجيش. وعلى أي حال يبدو أن هذا التوجه نحو الفجر قد تأصل داخل الشعور العام في ظل الإمبراطورية العثمانية، وتكشف العديد من المصادر الاحتقار الواضح الذي يشعر به السكان - سواء العثمانيون أو السكان المحليون - نحو الفجر، ويعتبرونهم أقل مرتبة ولا يستحقون أدنى اهتمام، وهو نموذج اجتماعي طال صموده عاش في أرض البلقان حتى اليوم.

ورغم تلك الاتجاهات الاجتماعية السائدة وربما بفضلها - حظي الفجر

بفرصة كبرى في الإمبراطورية العثمانية كي يحفظوا العديد من خصائص شخصيتهم الثقافية العرقية، ومنها على سبيل المثال طريقة حياتهم البدوية بالإضافة إلى حرف تقليدية معينة، وكما تبقى - في النهاية - جماعة عرقية مغلقة، وكل فإن الحالة المدنية للفجر في ظل الإمبراطورية العثمانية تعد أفضل كثيراً من حالة أبناء عموماتهم في أوروبا الغربية حيث تعرضوا لاضطهاد جماعي قاس خلال الفترة التاريخية نفسها (العصور الوسطى) وربما يفسر ذلك السبب في وجود أعداد كبيرة من الفجر في البلقان عنه في أوروبا الغربية في الوقت الحاضر.

٣-١٧ التشريع الرسمي والواقع اليومي

يبدو أن المشكلات التي واجهها رعايا الإمبراطورية العثمانية نشأت بصورة متكررة - من الأسلوب الذي تُطبق به القوانين وليس في التشريع ذاته، وهو وضع تغير بصعوبة في البلقان، وهذا التحليل يُعد صالحاً تماماً بالنسبة للفجر وهناك دلائل تاريخية أكثر تُبرهن على ذلك، ففي البوسنة عام ١٦٩٣م تحول سليم بن عثمان الفجري - وهو خباز - إلى محكمة سيرايفو مع طلب إعفائه من سداد ضريبة الرأس (التي تُفرض على غير المسلمين) حيث قال في طلبه:

«أنا ابن رجل مسلم وأنا مسلم وأعيش في حي المسلمين وبالإشتراك مع المقيمين معي ندفع الرسوم حالما أتمكن من تدبيرها، وفوق ذلك فأنا أصلي مع المسلمين خمس مرات في اليوم وأرسل أطفالي إلى مدرسة دينية لتعلم القرآن مع باقي الأطفال، وأعمل ملتزماً بتعليمات حرفة الخبازة.....».

ومع طلبه أرفق وثيقة زواجه وخطاباً دورياً من السلطان يتعلق بدفع

الضرائب التي يؤديها المسلمون ، ووفقاً للقرار النهائي للمحكمة تم إعفاء المدعي من سداد ضريبة الرأس ، رغم أنه كان واضحاً أن هناك عشرات من الحالات الأخرى لم يتمكن الفجر من فرصة التحويل إلى المحاكم الرسمية . ولم تأت إشارة في الوثائق الرسمية للعثمانيين بشكل محدد أن على الفجر أن يدفعوا الضريبة المسماة «ضريبة الدم» وتتم بأخذ الصبية الصغار من عائلاتهم حتى تقوم الدولة بتربيتهم ليكونوا جنوداً في الانكشارية وهي وحدات النخبة في الجيش ، التي تخضع مباشرة للسلطان .

رغم ذلك ، توحي الأدلة التاريخية في بعض الحالات أن الرعايا من سكان البلقان قد تحايّلوا بوسائل عديدة لإرسال أبناء الفجر للسلطات العثمانية بدلاً من آبائهم ، وبمعاينة هذا الأمر ، يشير عدد من تعليمات السلطان أن أولئك الذين يحاولون إخفاء آبائهم ويستبدلون بذلك أبناء الفجر سوف يعاقبون بالإعدام . وقد أدى ذلك إلى ظهور أسطورة غجرية في السنوات الحالية تقول :

(اعتاد الأتراك أن يأخذوا ضريبة الدم من كل أسرة ، بوضع علامة حمراء على أبواب البيوت التي أخذوا منها طفلاً بالفعل ، وفي أحد هذه البيوتات كان للعائلة طفل واحد فقط ولكي يحفظوه من تلك النهاية ، اتبع أفراد الأسرة نصيحة بانجو فاسيل «باسل الأعرج» فذبحوا ديكا ونشروا دماءه على الباب ، وعندما رأى الأتراك العلامة تخطوا ذلك البيت ، ومن يومها يحتفل الفجر بيوم القديس باسل «فاسيليو فدين» وذلك بذبح ديك ويضعون علامة من دمائه على جباه الأطفال) .

وبرغم أن الفجر كانوا قانوناً غير عبيد إلا أن هناك عدداً من الحالات

التي بيع فيها الفجر كعبيد ففي عام ١٥٣٣ م ذكر هانز ديرنزشوام أنه رأى مجموعة من الفجر ترسف في الأغلال داخل سوق العبيد وقد جلبوا إلى المكان لعدم سداد ضريبة الرأس . كما وجد برهان آخر في تقارير رحالة أوروبيين آخرين وفي الوثائق الرسمية ، منها مثلاً ، أمر حكومي صدر عام ١٥٦٠ م للحكام المحليين في إقليم الدانوب يأمرهم أن يلتزموا بشدة بقاعدة عدم بيع الفجر - الذين قاموا بسداد ضريبتهم للأمير - في سوق النخاسة ، ورغم أن العبودية قد انتهت رسمياً في الإمبراطورية العثمانية عام ١٨٣٩ م خلال فترة الإصلاح السياسي أو ما يسمى « بالتنظيمات » إلا أنها قد تلاشت تماماً مع ذلك الوقت وأصبحت محدودة الأثر بشكل عام ، بالإضافة إلى أن وضع العبيد عندئذ كان معقداً ومتنوعاً ومختلفاً - غالباً - عن القبول العام لاستخدام ذلك المصطلح بواسطة القوم ، فمثلاً يُعد الوزراء « عبيداً للسلطان » وفقاً للقانون ، لذا فعبودية الفجر لم تكن عاملاً محدداً لحالتهم المدنية ولا وضعهم الاجتماعي داخل الإمبراطورية .

١٨-٣ هجرة الفجر داخل منطقة البلقان

لابد من النظر إلى وضع الفجر تحت الحكم العثماني في إطار مقارن ، وأحد تلك المقارنات المثيرة يمكن إجراؤها بين مولدافيا وفالاشيا ، وهما من الولايات الإقطاعية للإمبراطورية العثمانية ، والتي كان يهرب منها العبيد من الفجر باحثين عن ملجأ داخل حدود الإمبراطورية .

فمثلاً في السجل السابق لعام ١٥٢٢-١٥٢٣ م في مقاطعتي شومن وبروفاديا ، نجد جماعتين من الفجر الوافدين حديثاً من مقاطعة فالاشيا

قد تم تسجيلهما، جماعة كولاجوز المكونة من ثلاث عائلات مسيحية مقيمة، والرُّحل تحت قيادة توتاشي بن سلاف والمكونة من ثلاث عشرة أسرة مسيحية. وتمت تلك العمليات من الهجرة الداخلية على مدى واسع عند نهاية القرن السابع عشر حينما انتهزت جماعات كبيرة من الفجر فرصة نشوب الحروب بين النمسا والإمبراطورية العثمانية والاحتلال النمساوي المؤقت (١٦٩٠ - ١٧١٨ م) لأجزاء من شمال شرق الصرب وشمال غرب بلغاريا مع شرق بانات كي ينفذوا إلى قلب الإمبراطورية العثمانية ويستقروا هناك، وقد أطلق بعض المؤرخين على تلك الحركة «الهجرة الفجرية الثانية نحو البلقان»، وينسب غجر هذه الهجرة إلى الجماعة اللغوية التي يسميها اللغويون «لهجات الفلاة القديمة» (جوربيت فلاهوريا والمجموعات الأخرى) الذين استقروا بسرعة عبر أراضي شبه جزيرة البلقان ممتدين نحو الشرق بقدر ما تصل إليه أراضي آسيا الصغرى.

الفصل الرابع

انحدار الإمبراطورية العثمانية وغروبها

بعد وصول الإمبراطورية العثمانية لذرورة قوتها، دخلت عهداً طويلاً من السكون والخمود حتى بداية القرن الثامن عشر ثم بدأ الانحدار التدريجي، انحدارٌ طويلٌ مظلمٌ مملوءٌ بالمشكلات.

٤-١ أزمة الإمبراطورية وعذابها الطويل

منذ عام ١٨٠٠ م فصاعداً عاشت الإمبراطورية أزمةً مستديمةً، وقد أثر ذلك في الظروف الاقتصادية والاجتماعية بالإضافة لتعقد الجهاز الإداري، كل ذلك كان مصحوباً بسلسلة طويلة من الحروب الفاشلة - التي شنتها أساساً ضد النمسا ثم لاحقاً مع روسيا - وفقدان جزء عظيم من أرضها - خسرت الإمبراطورية العثمانية حربين متلاحقتين ضد روسيا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر وكان عليها أن تترك أراضيها على الشاطئ الشمالي للبحر الأسود والولاية المغولية كريمين خانات (منطقة القرم) وحاول السلطان سليم الثالث إصلاح الهيكل الحكومي، وإداراته والاقتصاد لكن أدى ذلك إلى تعميق المأساة والدخول في عهد طويل من الاضطراب الداخلي. ودخل الحكام المحليون وحكام الأقاليم في حروب مع بعضهم بعضاً - إذ أصبحوا شبه مستقلين حينذاك - بالإضافة - إلى حروبهم ضد الحكومة المركزية. وقد اجتاحت شبه جزيرة البلقان العصابات المسلحة المدعوة «كورجاليس ودعاليز» عدة أحقاب وأغلبهم من الجنود السابقين في الجيش العثماني الذين انقسموا واندفعوا في عمليات نهب جماعي لعامة الناس، وقد جندت حركة المتمردين - (هايدوتر) عدداً ضخماً من الأهالي المحليين لمقاومة العصابات المسلحة تلك

وكذلك الإدارة العثمانية، وقد وصف مؤرخا البلقان تلك الفصائل المسلحة المتمردة - غالبا - كإرهابيات وبشائر لحركة التحرير الوطني، رغم أن أنشطتهم - في الحقيقة - كانت أشبه كثيرا بأعمال أعدائهم. وقد مدت تلك الأزمة نضال التحرير الوطني لشعب البلقان بحافز قوي، فبعد انتفاضات عديدة وحربين تركيتين - روسيتين (١٨٠٦ - ١٨١٢ / ١٨٢١ - ١٨٠٩ م) بدأت الولايات المستقلة تظهر للوجود في منطقة البلقان في أراضٍ كانت من قبل جزءاً من الإمبراطورية العثمانية، فالصرب ظهرت عام ١٨١٢ م بعد معاهدة السلام ببوخارست، واستعادت اليونان حكمها عام ١٨٢٩ م عقب معاهدة سلام إيدراين في حين حصلت الولايات المحلية لمونتيجرو ومولدافيا وفالاشيا على الاستقلال الكامل تدريجيا، وقد شكلت الأخيرتين دولة رومانيا.

وقد ارتبطت محاولات الإصلاح العام في الإمبراطورية خلال القرن التاسع عشر - وهو ما يسمى بعصر الإصلاح - «أو التنظيمات» باسم السلطان محمود الثاني بصورة أساسية (١٨٠٨ - ١٨٣٩ م) وقد تحول كل ذلك إلى فشل مطلق ذريع. لقد حاول إزالة النظام الاقتصادي القديم المؤسس على الروح العسكرية مع إلغاء فرق الانكشارية وقدم للدولة جيشاً نظامياً مصحوباً بإصلاح تقسيمات أراضي الدولة وإعادة تنظيم الهيكل الضريبي الإداري كله، وقد ضمن توقيع الاتفاقية التي سُجلت عام ١٨٣٩ م المعروفة باسم جل - هان هاتيسيريف تطبيق المساواة الكاملة في الحقوق المدنية لكل رعايا الإمبراطورية المتداعية، ولم يؤد ذلك كله إلى أي نتائج عملية لكنه زاد الأزمات عمقاً، وقد ظهر أن انتصار تركيا بمساعدة بريطانيا (العظمى

وقتها) وفرنسا على روسيا أثناء حرب القرم ١٨٥٣ - ١٨٥٦ م كلفها ثمناً باهظاً فاق التوقع ، إذ انهالت بضائع أوروبا الغربية ورؤوس أموالها على أسواق الإمبراطورية ، وزادت الديون الأجنبية الهائلة من الأزمة الاقتصادية إلى أن تفككت الإمبراطورية عام ١٨٧٥ ولم تتمكن من سداد حقوق دائئها فى غرب أوروبا ، وازداد نضال شعب البلقان من أجل التحرر الوطنى قسوة فظهرت دولة مستقلة للبلغار عقب سلسلة من الانتفاضات ، وبعد الحروب الروسية التركية طوال عامى ١٨٧٧ - ١٨٧٨ م وقد انقسمت أساساً إلى الولاية المحلية «بلغاريا» ومقاطعة شرق روميليا التى ظلت خاضعة للإمبراطورية العثمانية حتى عام ١٨٨٥ م حينما تم توحيد الشطرين ، فى الوقت الذى حصلت فيه الولايات المحلية فى مولداڤيا وفالاشيا بالإضافة إلى الإمبراطورية النمساوية المجرية واليونان ومونتنيڤرو والصرب على مساحات هائلة من الأراضى العثمانية .

تواصلت سكرات الموت انتشاراً فى جسد الإمبراطورية العثمانية ، وحاولت ثورة الأتراك الشباب (حركة تركيا الفتاة) عام ١٩٠٨ م إحياء مجد الإمبراطورية والحفاظ على عظمتها لكنها ذهبت هباء ، إذ عانت الإمبراطورية هزيمتها النهائية أثناء حروب البلقان عام ١٩١٢ - ١٩١٣ التى كان من نتائجها قيام كل من اليونان وبلغاريا والصرب ومونتنيڤرو بتقسيم أراضى البلقان الإمبراطورية فيما بينهم كلها تقريباً باستثناء العاصمة فى استانبول ومنطقة ثراس الشرقية .

٤-٢ مصادر تاريخية عن الفجر

نتيجة لتلك الأحداث أخذت قوة الدولة - وصيانة سجلاتها (مثل سجلات الضرائب - والقضاء) في الانخفاض تدريجياً وأصبح توثيق حياة الفجر في الإمبراطورية أكثر تشتتاً وأقل صدقاً ولحسن الحظ كانت هناك - في الوقت نفسه - زيادة في كتابات شهود العيان ذوّنها مؤلفون أجانب يسافرون لأسباب متعددة عبر الإمبراطورية العثمانية وبدأت الدراسات العلمية عن حياة الفجر كذلك ، وتلك المصادر لا بد وأن تكون ذات شأن وغالباً ما تكشف مظاهر مثيرة من حياة الفجر في ظل الإمبراطورية العثمانية .

٤-٣ أدلة جوهان كيمبلين

يسلط نصّ مثير من الأدلة الضوء على حياة الفجر واتجاهات الناس نحوهم ، وهي وصف للفجر في منطقة نيشي من يوميات السفر للرحالة جوهان كيمبلين والتي تعود إلى عام ١٧٤٠ م :

«..... يوجد حوالي ٢٠٠٠ عائلة غجرية تعيش في منازل مصنوعة من العصي المجدولة معا ، وقد سكنوا تلك الأراضي منذ زمن طويل ، لذا فالتجول (لم يعد) مظهراً من مظاهر حياتهم كما هو بالنسبة لمعيشة الفجر عندنا «المصريين» !! فالنسوة يرعين أسرهن ويؤدين الأعمال المنزلية ، بينما يسلم الرجال أنفسهم لأعمال وضيعة متعددة ، ولكن العديد منهم يعملون بحرف مهنية أخرى ، وقد تم استبعادهم عن العمل بالزراعة ، وعقيدتهم إما أن يكونوا مسلمين أو مسيحيين لكن أغلبهم

بلا عقيدة.. ولو قرر واحد منهم الاعتراف لدى الكاهن، لا يقوم بأداء أي طقوس ولا يلتزمون بأي تعليمات، ولكل منهم زوجة واحدة فقط يتزوجونها بعد تصريح شفهي يصدره زعيمهم، وتعد ضربية الرأس التي يدعونها هاراش - ويجمعها الأتراك منهم - عالية جدا..... وفي الحقيقة لا نجد بينهم أحدا من النبلاء ولا الزعماء البارزين ولا يوجد نظام أو قانون بل الجميع يحتقرونهم ويكرهونهم، فهم المتهمون المعتادون عقب كل سرقة أو نهب.

وملابس الرجال تشبه ملابس البلغاريين، وترتدي النساء عقودا حول رقابهن مع «دلايات»^(١) مزينة بقطع النقود المعدنية التي تصل من الأذن للأذن الأخرى، ويرتدي الرجال أحذية جلدية ومغطفا يدعونه «أنتريا» بالإضافة إلى قفطان جلدي أشبه بالنموذج اليوناني، وصدورهم جميعا عارية تماما، ويعقصون شعورهم في دائرة بشريط يضيفون إليه وشاحاً قديماً....».

وللوصول إلى بدايات أصول هذه القبائل يمكننا الرجوع بالتاريخ حتى زمن نيكوفوروس حوالي عام ٨١١م (وتبع ذلك وصف مسبق لأحداث سبق ذكرها تتعلق باستقرار الجماعات المدعوة أتسنجاني مبكراً في إقليم ثراس) ومن هناك - على ما يبدو - تم اشتقاق اسم الفجر (زيجيونر)

1 - غطاء لنصف الوجه أشبه «بالحبرة» أو «اليشمك» مزين بقطع معدنية أو أصدا ف

تتدلى لتغطي الجزء الأسفل من وجه المرأة. (المترجم).

بصورة أو بأخرى، ويبدو أيضا أن عددا كبيرا من المهجرين أو المصريين المبعدين قد اختلطوا بهم، وعلى هذا يمكن القول إن لفظي الغجر (زيغيون) ومصريين كانا مستخدمين بصورة مترادفة لهؤلاء القوم. وهم فخورون جدا بذلك الإرث المصري (إيجيبشيان)، وعلى أي حال لا يوجد في تقاليدهم ولا لغتهم ما يبرز كمظهر للمصريين أو حتى للكلدانيين لولا انتشار بعض مظاهر العرافة والخرافة، إذ إن لغتهم شديدة الغرابة، في حين تأثرت لهجاتهم وطرق نطقهم باللغة العربية.

٤ - ٤ معلومات سكانية

نجد المعلومات السكانية التي تتعلق بالغجر في ظل الإمبراطورية العثمانية تعطي ملامح شديدة العمومية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، لأن انهيار النظام الإداري أدى إلى غياب السجلات المنظمة للضرائب لسكان الإمبراطورية، حتى أن آخر دليل شامل وصلنا يعود إلى عام ١٦٩٥ م في الأناضول ورومليا وفيه نجد ٤٥,٠٠٠ غجري مسجلين بالرجال فقط الذين يدفعون الضرائب، كان منهم ١٠,٠٠٠ مسلم يدفعون ٥ قروش «جروسات» ضريبة رأس لكل فرد، في حين كان الباقي مسيحيين يدفعون ٦ قروش لكل فرد.....

وفي عام ١٨٦٦ م سجلت وثائق وزارة المالية الرسمية أن عدد سكان الإمبراطورية كان ٤٢ مليون نسمة، عاش ١٨ مليونا منهم في أوروبا بما فيها ولايات: مونتيجرو والصرب ومولدافيا وفالاشيا. وكل واحدة منها تتكون من ١,٣٠٠,٠٠٠ من المغول والشراكسة والتسنتسار والأرمينيين

واليهود والفجر .

ويتبنى الكتابُ المعاصرون أساليب مختلفة في حساب أعداد الفجر في الإمبراطورية العثمانية وأدى ذلك إلى اختلاف واسع في تحديد تعدادهم، لذا تنوعت تقديرات أعداد الفجر المنشورة عن الجزء الأوروبي في الدولة التركية من ٥٠,٠٠٠ إلى ما يصل حتى ٦٢٠,٠٠٠، ووفقاً لما ذكره يوبيسيوني كان هناك ٢١٤,٠٠٠ غجرباً عامي ١٨٥٣-١٨٥٤م، أما الفجر في آسيا الصغرى فنادرًا ما كانوا يُذكرون، في حين كانت المعلومات عن آسيا وأفريقيا ناقصة تماماً، وعلى أي حال ليس لدينا أي مبرر للشك في مقولة آمي بويه حينما كتب في القرن التاسع عشر أنه (لا يوجد بلد في أوروبا به أتسجنجاني «الفجر» أكثر من الإمبراطورية العثمانية) .

وتتوافر معلومات أكثر دقة عن وحدات إدارية أو قروية أو إقليمية معينة، ففي عام ١٨٧٦ م على سبيل المثال تم تسجيل ما جملته ١٣,٨٩٢ من السكان الخاضعين للضريبة في إقليم بلوفديف للرجال البالغين فقط بلغ عدد الفجر المسلمين منهم ١٢,٤٧١ نسمة والفجر المسيحيين ١,٤٢١ نسمة وبتقسيم تلك الأعداد على المقاطعات نجد الآتي : في بلوفديف ذاتها ٥,٤٧٤ من المسلمين و ٤٩٥ من المسيحيين وفي تاتار بازار ٢,١٢٠ مسلماً و ٤٩٥ مسيحياً وفي هاسكوفو ١,٥٤٨ مسلماً و ١٤٥ مسيحياً وفي ستارا زاجورا ٩٨٩ مسلماً و ٧٠ مسيحياً وفي كازانلوك ١,٣٨٤ مسلماً و ٢٤ مسيحياً وفي تشيرباني ٤٢٠ مسلماً و ٨٨ مسيحياً وفي آهي سيلبي * ٣٧٧ مسلماً وفي سلطان إيرلي ١٥٩ مسلماً .

وتوجد بعض الأرقام المفيدة - كذلك - في كتاب der Balkan Donau

Bulgarien und الذي دونه الجغرافي النمساوي فيليكس كانيتز الذي ارتحل عبر الأراضي البلغارية خلال ستينيات وسبعينيات القرن التاسع عشر، فوفقا لكتابه كان يوجد في كازانلوك ٥٠ عائلة غجرية وفي لوفيتش ١٥٠ عائلة من الغجر الأتراك و ٣٠٠ من المسيحيين وفي سفيتشوف ١٦٠ عائلة غجرية وفي فيدين ١٠٠ عائلة غجرية وفي روس ٥٠٠ غجري وفي سيليسترا ٥٨ أسرة غجرية وفي دوبريش ٣٠ عائلة غجرية وفي كارنوبات ٤٠ عائلة غجرية وفي كالوفر ٤٠ أسرة غجرية وفي أورهانتي ٢٠ عائلة غجرية وفي صوفيا ٩٠٠ غجري وفي فراتسا ٢٠ عائلة غجرية وفي بيركوفيتا ٣١ عائلة غجرية وفي كويناري ٦٠ - وأكثر الإحصائيات دقة وشمولاً لديموجرافية السكان الغجر خلال تلك الفترة هي تلك التي وردت في «تاريخ البلغار» لمؤلفه كونستانتين جيريك حيث يذكر أن في مقاطعة الدانوب كان يوجد من الغجر المسيحيين ٧٥٥٩ و ٢٤,٨٣٥ من المسلمين (الرجال البالغين فقط هم من تم إحصائهم) في حين كان يوجد في مقاطعة إيدراين ٦٢٦,٤ مسيحي و ٢٢,٧٠٩ من المسلمين.

لم يكن انتشار الغجر موزعا بصورة متساوية عبر كل الأقاليم أو الوحدات الإدارية، إذ لاحظ جميع الكتاب أن الغجر كانوا كثيرين في المناطق المركزية لشبه جزيرة البلقان (خاصة في ثراس) وفي محليات مولدافيا وفالاشيا ويتضح من المعلومات المستقاة آنفاً وفي الفصل السابق، أنه كانت هناك نية بالنسبة للغجر لتغيير معتقداتهم، فالغجر المسيحيون خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر سادوا المنطقة، ولكن مع قدوم القرن التاسع عشر تحول التوازن العددي بشكل درامي وأصبح المسلمون

هم الأغلبية وكان معدل نسبة المسلمين للمسيحيين قد تم حسابه بصورة مختلفة هو ١ : ٣ أو ١ : ٤ وكان من الصعب معرفة نسبة محددة، إذ كان الغجر يُغيرون - غالبا - دينهم لكن كان هناك ميل مستمر عبر القرون لتبني عقيدة الإسلام.

ولم يتم حسم حساب معدل الغجر المقيمين إلى نسبة الغجر الرُّحْل إذ للمرة الثانية تختلف المعطيات للتمييز بين الحالتين «الإقامة - الترحل» ولم تستقر أبدا بوضوح، وذلك يفسر أسباب تناقض المؤلفين مع بعضهم بعضاً، فالعالم الفرنسي آمي بوييه - مثلاً - يذكر أن الغجر المقيمين كانوا أكثر عدداً من الرُّحْل، بينما كانت النسبة في كتاب الدكتور أليكساندر باسباتي وهو بروفييسور يوناني في استانبول ومؤلف أول كتاب عن الغجر في الدولة العثمانية على العكس من ذلك.

وآخر فترة لدينا عنها معلومات مقبولة ويُعتد بها عن الغجر في ظل العثمانيين جاءت من إقليم مقدونيا عند بداية القرن العشرين، وفقاً لكتابات فاسيل كونتشوف، كان هناك ٥٤,٥٥٧ من الغجر، منهم ٣٥,٠٥٧ من المسلمين و ١٩,٥٠٠ من المسيحيين، لكن المنطقة التي غطاها ذلك الحصر لم تشمل الحدود الإدارية المحددة في ذلك الوقت، فمقاطعة سكوبجي العثمانية - على سبيل المثال - شملت جزءاً كبيراً من كوسوفو لكن كوسوفو لم يضمها كونتشوف لأرقامه.

٤-٥ الفجر وعصر الإصلاح

أثرت عمليات الإصلاح - أو على الأقل محاولات ذلك - في مجتمع الفجر، وبينما كانت تتم التغييرات المفترضة، جرت محاولات لتنظيم الحالة المدنية للفجر لتتقارب مع حالات الرعايا الآخرين داخل الإمبراطورية، ورغم الرغبة في الإصلاح العام للإمبراطورية العثمانية - وانتهاء تلك الجهود والأفعال إلى نتائج غير مؤثرة، ظلت الظروف المحيطة بالفجر دون تغيير.

قامت السلطات العثمانية باستخدام معايير إدارية لدفع الرُّحْل إلى الاستقرار بصورة دائمة، وفي معظم هذه الحالات جاءت النتائج غير مؤثرة، ففي عام ١٨٠٥ م - على سبيل المثال - أمر حاكم البوسنة القادة المحليين بإيقاف الفجر الرحل عن ممارسة أساليب التجول التي يعيشونها.. ولكن وفقاً لتقارير الحكام المحليين؛ ورغم أن الفجر كانوا قد وعدوا بتنفيذ ذلك؛ إلا أن وضعهم لم يتغير كثيراً ولذا فقد أصدر السلطان فرماناً عام ١٨٤٥ م بأن الفجر الموجودين في منطقتي روميليا والأناضول الذين يتجولون باستمرار بغرض النهب والسرقعة وارتكاب الأعمال الشريرة يجب أن يُسمح لهم بالاستقرار حيثما يشاءون طالما وافقت السلطات المحلية، علاوة على أنهم أحرار في التنقل بين القرى لشغل أنفسهم بأمور حرفتهم مثل أعمال الحدادة وصناعة العُلب الصفيح وغيرها من بداية فصل الربيع حتى نهاية الخريف هذا إذا لم يتسببوا في أي أذى للسكان ليين، ولم تتعدّ نوايا مدحت باشا - رجل الإصلاح المعروف وحاكم لة الدانوب في ستينيات القرن التاسع عشر (١٨٦٠م) - بقاءها

حبراً على ورقٍ، وهو من حاول أن يمنع استمرار الفجر في سلوك حياتهم المتنقلة بشدة عام ١٨٦٤م، وقد أيد جهده هذا كل السلطات المركزية لكنه لم يجد طريقه للتنفيذ أبداً. ونتيجة لأزمة الإمبراطورية التي مرت بها خلال القرن التاسع عشر، توقف بعض أعضاء المجتمع المحلي في البلقان عن أداء واجباتهم ومهامهم مما دعا الفجر إلى القيام بتلك الأدوار بدلاً منهم، ونجد مثلاً لذلك في نص كتبه سيمون تاباكوف بعنوان (محاولة في تاريخ مدينة سيلفن) يتحدث فيه عن «الفوي نو كس» وهم فئة معينة من المواطنين الذين ظلوا -حتى ذلك الحين- عنصراً أساسياً من عناصر السكان البلغار الذين كانوا يقومون بأداء عدد من الواجبات الخاصة مثل الحراسة المسلحة للممرات الجبلية والعناية بالخيول في قصر السلطان وما إلى ذلك.

وخلال فترة نهاية نظام الفوي نو كس في بلغاريا وذلك بعد صدور تنظيمات عام ١٨٣٩م في إقليم سيلفن - خاصة منطقة جيرافتا - أصبحت مهمة السفر إلى استانبول سنوياً لأجل رعي خيول السلطان وتسريحها بالمراعي مهمة يختص بها الفجر وحدهم. وقد بقي مصطلح «شيري باشا» قائماً منذ ذلك الحين ونعتاً لرئيس أو زعيم جماعة الفجر، في حين تعني الكلمة أصلاً في اللغة التركية قائد مجموعة جنود أو زعيم عصابة في العادة.

وخلال فترة انحدار الإمبراطورية العثمانية التي استغرقت ثلاثة قرون، تلاشت الامتيازات التي تمتع بها الفجر الذين عملوا في خدمة الجيش في وحداته المعاونة تدريجياً، ولم يعد أحد يذكر لهم ذلك، وهذا ما يفسر

ورود نص في تقرير رسمي قدمته الحكومة في ٢١ يناير عام ١٨٧٤م، يقول إن الغجر لم يؤدوا الخدمة أبداً بالجيش لكن قد يُسمح لهم بذلك، في حين سيتم إلغاء الضريبة التي تُدفع كرسوم خاص يؤديه المسيحيون والفئات المماثلة التي لا تُستدعى لأداء الخدمة العسكرية وتسمى «البدل العسكري» وهذا الاقتراح ظلّ مثل معظم محاولات الإصلاح مجرد حبر على ورق، كما ظلت أوضاع الغجر كما هي دون تغيير يُذكر وللنظرة العامة المتعسفة نحو الغجر، قامت الإدارة العثمانية باستخدامهم ولكن في الأعمال المدنية فقط. وقد بالغ في عكس ذلك الكاتب فيليكس كانيتر حينما ادعى أن ٩٩٪ - مالم يكن ١٠٠٪ - من عمدة القرى البلغارية كانوا من الغجر المسلمين، وعلى أي حال فالإحصائيات لا تشير إلى عدد عمدة القرى الفعليين وإنما تشير إلى رجال الحرس (البودار) الذين عينتهم الدولة لحراسة أراضيها، وقام أهالي القرى بإمدادهم بالغذاء حيث كان ذلك شائعاً طوال القرن التاسع عشر وكان الغجر -المسلمون بالطبع- يتم تشغيلهم في فرق البوليس غير المنتظمة «الطبليات»، وأثناء الانتفاضات والثورات التي كان يقوم بها السكان والرعايا المحليون، كما ساهموا أيضاً بكفاءة في القوات المسلحة التركية غير النظامية (المسماة باشوزقات) وقاموا بدور في نهب وإحراق القرى المسيحية.

٤-٦ مصطفى شيبيل

يصعب تحديد دور الغجر بصورة مؤكدة في الأحداث التي أدت إلى انهيار الإمبراطورية العثمانية، وكذلك طبيعة الاتجاهات الرسمية والشعبية

نحوهم، ومدى انعكاس ذلك على الحالة العامة لهم في المجتمع، فالمرء يمكنه فقط تخمين اتجاهات العامة - على سبيل المثال - نحو مشاركاتهم في جماعات مثيرة مثل جماعتي الكورجالي والدالي المعروفتين وقتها، وبالمنطق نفسه فإنه ليس واضحاً إذا ما كان المتمرد «مانوش فوي فود» له وجود حقيقي أم لا، إذ يأتي ذكره في الأهازيج الشعبية البلغارية التي تفترض وجوده في القرن الثامن عشر، وكلمة «مانوش» تعني في اللغة الرومانية «الشخص»، وبالطبع لا يمكن قبول ذلك اللفظ كاسم أول في اللهجة البلغارية أو أي لهجات أخرى تمثل أي مجموعة عرقية أخرى في المنطقة. وعلى خلاف ذلك الاسم شبه الأسطوري «مانوش فوي فود»، لا نجد شكاً في وجود الفجري مصطفى شيبيل ولد مصطفى في قرية قراديتس، في مقاطعة سليفين وكان خارجاً على القانون حتى وفاته عام ١٨٥٦، وأصبح النموذج لمنبع الشخصية الرئيسية في القصة القصيرة الشهيرة «شيبيل» التي كتبها يوردان يوفكوف، وهو واحد من الكتاب الكلاسيين في الأدب البلغاري، رغم أن شيبيل لم يظهر كفجري في الحكاية.

وتُعد قصة شيبيل نموذجاً للمعالجة الغامضة الملتبسة لحدث بعينه من خلال مصادر مختلفة، كذلك لعدم قدرة الوثائق الرسمية على كشف الحقيقة التاريخية الكاملة. ونقتبس هنا بعضاً من أوراق الإدارة العثمانية المتعلقة بمسألة مصطفى شيبيل هذا، فهذا أولاً خطاب من حاكم إقليم سيلفن؛

«الخطاب الحالي من خادمكم المطيع والموجه لفخامة الوزير الضابط الأمر لجيش روميليا، والممثل الأعلى للإمبراطورية العثمانية.

إلى فخامته

إن الفرد المسمى شيبيل أو غلو مصطفى هو قاطع طريق معروف، يعود أصله إلى جماعة الفجر التي تعيش في قرية جراديت بصورة دائمة من إقليم سيلفن بالإضافة إلى بعض من رفاقه اللصوص، ويجوب أنحاء الإقليم المذكور والمقاطعات المجاورة، ويسبب دماراً وخسارة للناس الفقراء وللمسيحيين، وذلك بجرأته على سلب ممتلكاتهم بالقوة وعلى قتل أناس وإثارة غضبهم. وأرى أن تركه لذلك السلوك المريع لا يمكن ضمانه. - بواسطتي أنا خادمكم المطيع - ولا أمنحه رضاي ولا ثقتي فيه.

وبرغم حداثة الاستقرار والعيش الثابت في القرية المذكورة جراديت، أصبح معروفاً أنه مازال يطلب - أحياناً وسراً - نقوداً وسلعاً من الفقراء والمسيحيين، الذين يسكنون هذه المنطقة، واستهوته العودة من جديد للعنف والظلم وهو ما أدى إلى صدور أمر بإجراء التحقيق في ذلك. وكما ذكرت في تقرير المرفوع لفخامتكم، أخطركم أنني أنا - خادمكم المطيع - قد علمت محتوى الأمر الكتابي الذي يتعلق بالمسألة، وهو يستحق التقدير والاعتبار ويبدى الطيبة والخير، ويأمر بتنفيذ إزالة آثار الشر التي سببها الشخص المذكور عاليه مهما كان المبرر الذي سيقدمه كي نُعيد الرفاهية والأمن والطمأنينة والاستقرار لجميع قطاعات السكان والمواطنين.

ولأن المذكور آنفاً قد ارتكب لعدة سنوات كل أنواع الشرور والآثام في تلك المناطق أثناء مناقشة الأمر الخاص بإزالة الضرر الذي تسبب فيه، وحينما ثار السؤال بشأن غفران أعماله الشريرة السابقة، طلب

المسيحيون المقيمون بالقرية المذكورة - وهم يستحقون الاحترام والتقدير - أن يعتمد ذلك التسامح مستقبلا على كلمته التي وعد بها وعلى سلوكه .

وبالنسبة لمسألة توفير الطمأنينة للفقراء في ظل الظروف الموصوفة سابقا ، وبفضل المراسلات المكتوبة مع سلطات الإقليم ، نعتقد إمكان تحقيق ذلك ، وعلى كل فالشخص المذكور هذا لا يمكنه البقاء طويلا دون سلب ونهب وهو أمر متأصل في طبيعته وشخصيته .

ووفقا للمعلومات التي وصلتني والتي فحصتها بدقة بنفسي ، فقد تجرأ مؤخرا على تكرار ممارسة بعض الأعمال الشريرة .

أمل بجهودكم أن تختفي ذكرى ذلك الشر والأذى المستفحل الذي قام به اللص المذكور وأن تزول آثار أفعاله وأن كل جهد ممكن سيبدل لتأمين السلام والاستقرار للسكان حتى يتمكن الرعايا المسيحيون من الاستمرار في أعمالهم .

وكما هو معلوم لفخامتكم في هذه المسألة والمسائل الأخرى فإن إصدار الأمر عائد لصاحب الحق في إصداره (يقصد عائد للأمير)

بتاريخ ١٠ مارس ١٨٥٣ م

خادمكم المطيع . حاكم إقليم سليفين : السيد علي رضا .

وناقش الجيش القضية وتوصل للقرار الآتي :

٢٥ مارس .

مع بالغ الاحترام ، وصدور أمر بواسطة المحكمة العسكرية المؤقتة لاتخاذ الإجراء الآتي :

وفقا لمعنى التحذير المكتوب والاستفسار بشأن الحقائق، التي بُذلت بشكل شخصي بهدف إثبات صدقها، يصبح واضحا أن قاطع الطريق المذكور ليس من النوع الذي يمكنه الوفاء بتعهداته أو حتى مستعد للتعليم ولا لإصلاح طريقه في الحياة، فهو جريء ووقح لذا يجب عقابه لأفعاله التي لا يمكن إقرارها، ولكل هذا يجب اتخاذ العناية الضرورية لبقى في الهيئة التي يستحقها بما وُجد عليه واُكتشف فيه (من شرور)

ويجب إصدار أمر وزاري بواسطة قائد هيئات الجيش موجه للحاكم المذكور سابقا كيما يرسل ذلك اللص قاطع الطريق بسرعة للتحقيق هنا، مقيدا في الأغلال حتى لا يهرب خلال عملية نقله وكل ما يمكن عمله يجب عمله لتأمين ذلك .

وكما هو معلوم لجلالتكم، فإن إصدار أمر بهذا الشأن موكول لصاحب الأمر (لكم)

التاريخ ٢٥ مارس ١٨٥٣

المجلس الأعلى لجيش روميليا رقم ٩٢١ .

وقد اكتسى مصير مصطفى شيبيل في قصته بمنحني مختلف رسمه له المتمرد البلغاري الشهير والناشط في حركة التحرير الوطني البلغارية، بانايوت هيتوف في سيرته الذاتية (كيف أصبحت متمرداً)، تسبب مصطفى شيبيل في الكثير من الأضرار، وهو من الفجر الأتراك وكان يرشو حاكم كارنوبات التركي بمبالغ تتراوح بين ١٠٠ إلى ٢٠٠ ليرة تركية كيما يتظاهر بمطاردته وأنه لم يتمكن من القبض عليه، وعبر فترة تطول من ثمانية إلى عشرة أعوام ضج الأهالي من بورجاس حتى سليفن

وفي كوتل وإيلينا وجأروا بالصراخ للسماء وعند سماع اسم «شيبيل» كانوا يرتعدون، وقد قبضوا على «مصطفى شيبيل» عدة مرات وأخذوه إلى مدينة إيد راين لكنه ظل يهرب وينهب الناس ويجلب عليهم العار. إذ بينما كان الناس يحصدون محاصيلهم في الحقول كان مع عصابته يهاجمون القرى، وعند عودتهم في المساء كان يحبسهم ويسرقهم في منازلهم بل ويذبحهم. ولو أن تاجرا أراد أن يمضي لعمل ما فإن عصابة «شيبيل» تخطر زعيمها بأن ذلك التاجر في طريقه إلى رحلة عمل وسوف يسلك هذا الطريق أو ذاك فينهبه «وبهذه الطريقة جمع ذلك الفجري ثروة طائلة وفي النهاية سامحه الأتراك، ثم جاء إلى قرية «جرادت» وبدأ يحيا كالعظماء كما لو كان «أغا» كبيرا وعاش كبطل وأمر رعاة الماعز في القرى المجاورة أن يرسل كل واحد منهم إليه من خمس إلى عشر عنزات كما كانوا يفعلون مع أي «أغا» يحكمهم، كان هو أيضا لديه عديد من العنزات في الغابة. وقد أطاعه أولئك الرعاة إذ من يجرؤ على عدم إرسال ما يطلب أو الامتناع عليه؟ فلو أنهم رفضوا سيقوم بذبحهم في اليوم نفسه. وفوق كل ذلك اختطف «مصطفى». (ذلك الفجري) امرأة بلغارية واتخذها زوجة من نفس قرية «جرادت» التي كانت تحت سلطة العمدة «فوربان شوربانجي» اسمها «جندة» وكان لها زوج لكنه ضعيف كالمرأة العجوز لا يملك روح الشجاعة لقتل زوجته أو قتل الفجري - لذا ترك زوجته للفجري مصطفى الذي غمرها بالعملات الذهبية التركية القديمة وتحملت قرية بجرادت تلك الإهانة التي أوقعها بها فجري تركي نكرة، وأكاد أقول إن ذلك الرجل لم يكن خارقا....

لقد رأيت مرة عندما كان في سجن سيلفن ولم أصدق أن ذلك الرجل ذا البنية المكتملة، الطويل الأشقر، عريض المنكبين كان من الفجر لكنهم أخذوه بعيدا وهو يتباهى بأنه قد منح سلطان سليفن نقودا من أجل مباني الحكومة (كوناك) وأنه قد رشى بعضا من المسؤولين، وفيما بعد ولهذا السبب البسيط أرسل الأتراك فرقة من الشرطة من مدينة يامبول لعمل كمين على الطريق الواصل بين قرية جرادت وكايباش ثم أرسلوا رجلا تركيا لمدينة جرادت لإخبار مصطفى شيبيل أن أصدقاءه في انتظاره لتنفيذ عملية سرقة كبرى حيث إنهم ليسوا قادرين على ذلك بدونه وقام مصطفى بتسليح نفسه وامتطى جواده وغادر جرادت وقبل أن يمضي في الطريق لنصف ساعة من الزمن انطلقت رصاصات بنادق جنود الكمين وهكذا تم قتل ذلك الفجري.

٤-٧ الفجر الرحل

خلال تلك الفترة استمر عدد كبير من الفجر في ظل الإمبراطورية يعيشون حياة الترحال وهناك وصفٌ تفصيلي - نسبيا - للفجر الرُّحَل يمكن أن نجده في كتابات أليكساندر باسباتي:

«رغم أنهم - أي الفجر - يوجدون بأعداد كبيرة في كل مناطق روميليا، إلا أنه يمكن تأكيد وجودهم بأكثر الأعداد في منطقة ثراس القديمة. وتأخذنا الدهشة عندما تظهر خيامهم السود، أثناء الفصل الحار من السنة، كبقع قائمة في ساحات المدن بالإضافة إلى ضواحي القرى والمدن الصغيرة، فالمرء يراهم في كل مكان بخيامهم وأمتعتهم وأطفالهم

مصحوبين بحميرهم وخيولهم منتقلين من مكان لآخر، أحيانا تجد عائلة واحدة وأخرى تجد أكثر من واحدة، وخارج أطراف المدن المزدحمة - يمكن رؤية الكثير من الخيام الضخمة التي تؤوي أكثر من عائلة - العائلات التي تتوقف هنا تتخذ من المكان محلا للإقامة في أوقات دون أن يعرف بعضهم بعضاً، ويهجر الفجر مأواهم الشتوي ويدعونه كيشلا أحيانا وسط أبريل ثم ينتشرون في الأقاليم المختلفة تبعا لمواسم السنة، فبعضهم يترك الشمال ويرحل عبر شبه جزيرة البلقان حتى يصل لأبعد مكان في آسيا الصغرى، في حين يرتقي الآخرون الأجزاء الشمالية من جبال البلقان ثم يعودون ثانية وسط شهر أكتوبر، وفي المقابل لا يهجر بعضهم إقليمهم الذي ينتقلون في أرجائه باستمرار فيتعرفون على كل السكان في القرى بالإضافة لمعرفة باحتياجات الحرفيين والقرويين الخ، وهم - غالبا - يعودون إلى مأواهم الشتوي، مخيمين عادة خارج القرى بالقرب من إحدى الآبار في حين ترعى حيواناتهم وهي مربوطة من أرجلها بالخيام، أما في القرى التركية، حيث يكونون أقل احتقارا، يمكن رؤية خيامهم - في الغالب - موزعة وسط القرى ويبدو النموذج الموصوف آنفا حياة الترحال الفصلي، مع وجود مأوى شتوي دائم وهو نموذج قديم تماما ومميز لخصائص الفجر في القرون السابقة وكان معتادا في البلقان ثم استمر مع بعض التغيرات حتى عصرنا الحالي.

وتستحق ملاحظات آمي بويه حول طريقة حياة الفجر الرُّحَل أن نقتبسها هنا:

«يعيش الرُّحَل في خيام بائسة من قماش رمادي أو أسود ملطخ

بالزيوت ، وهم ينشرون خيامهم تلك عند مداخل القرى أو يقومون ببناء أكواخ خشبية مغطاة بالقش لأنفسهم ، باستثناء ألبانيا بشكل خاص ، فهم يستطيعون العيش في عربات مغطاة بفروع الشجر أو بنسيج من القماش ، وبالقرب منهم يمكن للمرء أن يرى الثيران أو الجواميس التي تقوم بجري تلك العربات وهي ترعى مع البقر التي يقوم بتربيتها سكان هذه العربات .

وأغلب هؤلاء الرُّحَّل يقودون الخيل وحينما يرتحلون تبدو الجماعة في صورة خلافة ، وأمام ذلك الطابور يتقدم غجري مسلح ، حتى سلاحه كان عبارة عن بندقية ألبانية .

ثم يأتي بعده النساء والأطفال يقودون الخيل كذلك - مع بعض من الأفراد على خيول منفردة - ثم تأتي العربات وبقية الرجال سواء على أقدامهم أم على ظهور الخيل وبدلاً من الالتجاء للفنادق (للمبيت) يقضون ليلتهم على حافة الغابة حيث يقيمون مأواهم حول نار كبيرة ، وتتكون أدوات حرفهم من السندان والكور وبعض الزرديات « الكماشة » والمطرقة والمبرد والمفك وكلها أدوات للحرفين الفجر الرحل .

٤-٨ الفجر الفلاحون (عمال المزارع)

تكشف المصادر من نهاية القرن الثامن عشر فصاعداً عدداً متزايداً من محال الإقامة الدائمة للفجر في القرى واعتمادهم على الفلاحة ، وهو اتجاه برز من قرون باكرة في العهد العثماني ، إذ يذكر الإنجليزي « ويليام ماكмышيل » - وهو يعبر الأراضي البلغارية عام ١٨١٨م - عدة قرى في

إقليم يانتر السفلي، «قرى يسكنها الغجر بأكملها... الذين استقروا فيها وانخرطوا في أعمال الزراعة ورغم أنهم يعتبرون أنفسهم مسلمين، إلا أنهم يدفعون ضريبة الرأس كالمسيحيين» وفي القرن التاسع عشر يصف آمي بويه قرى الغجر مثل قرية هيبى بجي بالقرب من إيدراين وفوينيكو في جبل بيند، بقوله «وجود تلك القرى مسكونة تماماً بالغجر يوحي بأن سكانها هم من العمال الزراعيين ولو أن قرية عاش بها قليل من عائلات الغجر فالفرض الطبيعي أنهم يمثلون حرفيي القرية، وعلى كل لو كان سكان القرية كلهم من الغجر فمن المنطقي أن نتوقع أنهم - بخلاف قلة من الحرفيين - من العمال الزراعيين في أغلبهم. وفي اللهجة البلقانية تعني كلمة «سيلانين» في الغالب كلمة عامل زراعي حيث يتعيشون كلية من العمل الزراعي، بالإضافة إلى أنه من المثير ملاحظة اسم آخر قرية ذكرها آمي بويه وهي فوينيكو قد تتعلق بفئة خاصة من السكان في أوروبا في عصر سابق، أولئك المسمون «فوينكس» الذين ذكروا توأً وبذلك يكون من الممكن أن الغجر المنتمين لتلك القرية قد امتازوا بكونهم من احتياطي الجيش العثماني وكان هناك تطور آخر في استقرار الغجر واحتراف الزراعة كمهنة منتظمة هو تنامي عدد مزارع القرى (تشيفلك كوي)، وقرى التسكين لعمال المزارع في ضواحي المزارع المقامة حديثاً، حيث يؤخذ منها الغجر كعمال بالأجر طوال السنة أو في فصل بعينه. ويقول ستيفان زاهاريف في وصفه التفصيلي لمقاطعة تثار - بازارجيك عام ١٨٧٠م، أن الغجر في عدد من القرى كانوا «مزارعين ومربي ماشية».

في «يامورلار ١٠ عائلات و ٣٥ من السكان البلغارين ولهم ثلاث مزارع، و ١٠ عائلات من الفجر يعملون بأجر كعمال مزارع (راتاي) و ٢٠ من السكان الفجر. وفي شارجانلو - وهي قرية تركية - ٣٥ عائلة تركية و ٣٠ عائلة غجرية ومئة غجري كلهم عمال مزارع». ووصف فاسيل كونتشوف لمقدونيا التي تعود لنهاية القرن التاسع عشر يتشابه مع ما سبق:

- «جوانتسي» مزرعة تقع جنوب فوربيني بحوالي ٢ كم وبها ٣٠ عائلة، ثلاث منها تركية وسبع وعشرون من الفجر.
- «وانسكو» بها حوالي ١٥ عائلة نصفهم من الألبان المسلمين (أرناؤط) والنصف غجر من عمال المزارع.
- «نوفو سيلكو» مزرعة صغيرة بها حوالي ٢٠ عائلة غجرية.
- «سوغ» بها حوالي ٥٠ عائلة، منهم ثلاثون من الأتراك وعشرون من الفجر الفلاحين.

٤-٩ الموسيقيون الفجر

خلال فترة انحدار الإمبراطورية العثمانية. بقي تمايز وبراعة الموسيقيين الفجر في المجتمع دون أي تغيير وفقاً لما ذكره أليكساندر باسباتي الذي يصف حياة الموسيقيين الفجر من القرى المجاورة لأستانبول بقوله «إنهم يذهبون من قرية لأخرى من أجل الاحتفالات والأعياد الخاصة بكل من المسيحيين والأتراك (المسلمين) سواء بسواء، فيعزفون الموسيقى ويغنون» ويلاحظ ذلك آمي بويه» بقوله:

«يمكن القول إنه بقدر أهمية الموسيقى لهؤلاء الفجر، فإن لها استخداما حقيقيا في أراضي تركيا».

ونحن نجد خلال القرن التاسع عشر ولأول مرة إشارات لحفلات عامة للموسيقى الفجرية، ورغم أنهم ليس عليهم التزامات قانونية تجاه الإدارة العثمانية، إلا أن مجموعات من الموسيقيين قد تمت دعوتهم على يد السلطات المحلية لعزف موسيقاهم في مناسبات معينة. ولناخذ عام ١٨٤٦م كمثال عند استقبال السلطان عبد المجيد في جبروفو، حيث تمت دعوة فرقتين من الفجر من أجل الاحتفال في المدينتين المجاورتين تورنوفو وتريافنا. وقد سُر السلطان بموسيقاهم وبالإضافة إلى منحهم إكرامية «البقشيش» قام بمكافأة قائدهم بابا تسفياتكو بإهدائه آلة كمان مرسلّة خصيصاً من استانبول ومزينةً بالعاج، ومجموعة الفجر الموسيقية تجمع عادةً آلتَي الزورباس التقليديتين ومعهما طبلان، وتعزف - كذلك - في الأعياد المحلية لنوعية خاصة من الاحتفالات (عيد التستير مثلاً).

٤-١٠ طبقة العمال من الفجر

قام بعض الفجر في بلغاريا بتثبيت أنفسهم في حرفٍ جديدة تماماً، دون وجود سوابق لها وسط أبناء عموماتهم في أنحاء أوروبا، كما في حالة طبقة العمال الفجر «البروليتاريا» في مدينة سليفن.

قام البلغاري دوبري جيليازكوف المعروف بـ«رجل المصنع» بافتتاح أول مصنع حديث للنسيج عام ١٨٣٦ في مدينة سيلفن لإنتاج القماش للدولة وبصفة أساسية للجيش العثماني، وكانت قوة العمل الرئيسية

فيه من الغجر في المدينة نفسها حيث كان البلغار في ذلك الوقت من الحرفيين الصغار والتجار أو منخرطين في العمل الزراعي ، وكانت الأيدي العاملة الوحيدة غير المرتبطة بأعمال بعينها هي قوة الغجر (رجال ونساء - وحتى الأطفال) وبالتدريج قامت طبقة عاملة ثابتة من العائلات الغجرية مرتبطة بصناعة النسيج التي ازداد عددها بعد تحرير بلغاريا بقدر له شأنه عام ١٨٧٨م عندما تم افتتاح عدد من المصانع الجديدة في سيلفن فأصبحت مركزاً لصناعة النسيج .

٤- ١١ الإحياء القومي لشعب البلقان

يجب أن نولي تقديراً خاصاً لمركز الغجر في الولايات الجديدة في البلقان التي بزغت وسط أراضي الإمبراطورية ، وكان القرن التاسع عشر هو قرن القومية لأهل البلقان عندما ظهر عدد من الدول الجديدة بعد سلسلة طويلة من الانتفاضات والحروب (خاصة بين تركيا وروسيا) ومن هذه الدول بلغاريا واليونان ومونتينيغرو والصرب في حين تخلصت محليات مولدافيا وفالاشيا من الإمبراطورية ، وظلت تلك الدول -على أي حال- في مدار الإمبراطورية العثمانية وارتبطوا بها لفترة طويلة كولايات وبالضرائب السنوية أو بوجود الحاميات التركية واحتفاظها بعلامح كثيرة للتقاليد التاريخية والثقافية العثمانية ، وحتى بنيتها الإدارية عكست ذلك الميراث .

وقد شارك الغجر في نضال التحرر القومي لشعب البلقان إذ ساهم كل من إيليا بلافيتش «الغجري» وأخيه مويو (الذي توفي عام ١٨٠٧م)

في انتفاضات الصرب ضد العثمانيين عند بدايات القرن التاسع عشر، وهناك دلائل تشير إلى ارتباط جماعات أخرى من الفجر بهذه الحركات كما كانت هناك حالات أصبح فيها الفجر ضحايا للأهالي المتمردين والمحليين مثلما حدث في انتفاضة أبريل ١٨٧٦م في بلغاريا، عندما قام المتمرّدون بذبح كل سكان حي الفجر رجالاً ونساءً وأطفالاً في مدينة كوبريفش تيتسا.

٤-١٢ ضريبة الرأس في صربيا

كان أمثُل نموذج أفرز تأثيراً قوياً على تقاليد الإدارة العثمانية وظل تأثيره نافذاً في الولايات الجديدة بالبلقان هو الحالة المسماة ضريبة الرأس على الفجر في الصرب، بعدما حصلت صربيا على درجة من الحكم الذاتي عام ١٨١٢م، ظلت الدولة الجديدة بقيادة الأمير ميلوش أوبرينوفيتش مرتبطة بالإمبراطورية بواسطة عدد من الالتزامات الضريبية والعسكرية، كما استمرت الممارسات القديمة في تحصيل الضرائب التي تعود إلى عهد الإمبراطورية العثمانية بما في ذلك ضريبة الرأس الخاصة بالفجر والمسماة آراش في لغة الصرب.

وقد احتفظت الصرب بضريبة الرأس المقررة خصيصاً من أجل الفجر، لأولئك الذين يقيمون بشكل دائم في مكان واحد كانت الضريبة ١١ جروت سنوياً لكل فرد عمره ما بين ١٥ إلى ٨٠ سنة، في حين كانت تلك الضريبة ٤ جروت للأطفال، وبالنسبة لأولئك الذين ينتقلون من مقاطعة لأخرى (أي أولئك الذين يعيشون حياة البدو والترحّل) فقد فُرِضت عام

١٨١٨م بمقدار ٢١ جروت لكل فرد سنوياً، وهكذا كانت الفكرة وراء النظام الضريبي في صربيا - كما كانت في النظام العثماني - تستهدف تشجيع الفجر على الاستقرار، أما الفجر الذين عاشوا في بلغراد فقد أعفوا من تلك الضريبة لكن كان عليهم أن يسددوا باقي الضرائب مع السكان المحليين.

والرقم الفعلي لمبلغ الضريبة الواجبة السداد تغير عدة مرات وعلى سبيل المثال عام ١٨٢٧م أصبحت تلك الضريبة الخاصة ٨ جروت لكل طفل بين سبع سنوات إلى خمس عشرة سنة، في حين يسدد الأفراد فيها بين ١٥ سنة إلى ٨٠ سنة ٢١ جروت، وبعد عدة سنوات من ذلك التاريخ فرضت الضريبة على الأفراد بين سبع إلى أربع عشرة سنة بمقدار ٨ جروت لكل واحد، ومن ١٤ سنة حتى الزواج ١٢ جروت ومن الزواج حتى الوفاة ٢٤ جروت سنوياً.

وكمبدأ، وجب أن تؤدي تلك الضريبة الخاصة المفروضة على الفجر إلى إعفائهم من أي التزامات ضريبية أخرى نحو الدولة، وهكذا فرغم اتسامها بصفة التمييز، إلا أنها تحولت إلى امتياز ضريبي خاص ومنذ ذلك الحين كانوا يدفعون ضرائب أقل مما يدفعه السكان من الصرب.

وفي مجال التطبيق لم يكن ذلك الإعفاء من كل الضرائب الأخرى يمثل تكريماً إذ أدى ذلك إلى تقديم الفجر لعدد من الشكاوى إلى الأمير ميلوش، وأكثر حالات شكاواهم سوءاً كانت تلك التي أسيء فيها استغلال جامعي الضرائب (أراكلياس) للفجر، وهم غير الفجر الذين عينهم الأمير خصيصاً لجمع الضرائب، وكانوا يحصلون مبالغ من النقود

أكبر كثيراً من الضريبة المقررة، وهو ما كان محلاً للعديد من الشكاوى المقدمة للأمير الذي كان لا يبدي اهتماماً بها حيث كان يعين خالصه في ذلك المنصب مكافأة لهم، وعلى كل فقد أبدى الأمير - أحياناً - طيبة وأعفى بعض الفجر من سداد تلك الضريبة الإضافية.

وبخلاف تحصيل الضرائب، كان لجامعي الضرائب هؤلاء عدد من المهام الأخرى وعلى رأسها تطبيق العدالة بين الفجر، وتنفيذ العقوبات والغرامات والواجبات الأخرى، فمثلاً جاء في فرمان الأمير الصادر عام ١٨١٩م، إن محصل ضريبة الرأس الخاصة بالفجر سيميون لو جوفيت قد تم تعيينه «حاكماً أعلى لكل الفجر»، ويمثل الفجر في كل شؤونهم وليس لأي شخص التدخل في أموره. وقد أثار محصلو الضرائب خوفاً كبيراً بين جماعات الفجر، وكانوا شخصيات معروفة جيداً في المجتمع الصربي، والأكثر شهرة بينهم هو آخرهم في تولي تلك الوظيفة وهو أتاناسي يوفانوفيتش (المدعو تاسا أراكليا) وكان لمساعدتهم وكتبتهم - الذين احتفظوا بقوائم التزامات الفجر من الضرائب محلياً - حقوق وواجبات محصلي الضرائب أنفسهم، في حين كان عُمَد الفجر معينين من قبل ذاتهم في المدن والمجتمعات المحلية، وكانت وظيفتهم مماثلة لمهمة زعيم الفجر قديماً (والمسمى شيري باشا المسؤول عن كل جماعة خاضعة للضريبة) في الإمبراطورية العثمانية، وكانوا يساعدون في جمع ضريبة الرأس - وتُدفع مقدماً ثم تُسترد فيما بعد من الفجر - وكان لهم بعض السلطات الإدارية المحدودة على الفجر، فهم يستطيعون مثلاً فرض غرامات واتخاذ قرارات في النزاعات الصغيرة.

كانت السلطة القانونية لجامع الضرائب من الفجر محدودة بما يتواءم مع دستور ١٨٣٨م ونتيجة لهذا - وفي العام التالي مباشرة - قررت وزارة الداخلية أن القضايا التي تتضمن غجراً يجب أن تجري أمام محكمة الإقليم وأن على محصل الضرائب ألا يتدخل في تلك القضايا .

وبدأت ضريبة الرأس المقررة على الفجر في الزوال حيث أصدر مجلس الوزراء قراراً أكدته مجلس الدولة أن الفجر المستقرين في منازل ثابتة سيتم إعفاؤهم من سداد ضريبة الرأس وسيتم منحهم حقوق مواطني الصرب الباقين نفسها ولكن عندما استفسر المجلس الإقليمي لمدينة سميديرفو عما إذا كان ذلك ينطبق على الفجر المسلمين، أجابته وزارة المالية بأن أولئك الفجر يجب أن يستمروا في دفع ضريبة الرأس (موضحة أن سياستهم ليست فقط لتشجيع الاستقرار والتوطن وإنما لتشجيع التحول إلى المسيحية الأرثوذكسية كذلك) .

ولم تجر عمليات تغيير الحالة المدنية أو الالتزامات الضريبية للفجر بيسر وسهولة، رغم أن قانون المواطنة الجديد الصادر عام ١٨٤٤ منح الفجر حقوق المواطنين الصرب نفسها إلا أن السلطات المحلية غالباً ما فضلت الالتزام بالممارسات القديمة (وكذلك فعل بعض الفجر حيث قد يعني ذلك سداد ضرائب أقل) وفي عام ١٨٥٣ أكد قرار خاص أن على الفجر المقيمين دفع ضرائبهم للسلطات المحلية كما يفعل باقي المواطنين في حين يستمر الفجر الرحل في دفع ضريبة الرأس التي أصبحت - عندئذ - ٢٤ جروت للبالغين المتزوجين و ١٢ جروت للبالغين غير المتزوجين و ٨ جروت للأطفال بين ٨ إلى ١٤ سنة وهو ما كان يجب سداؤه للسلطات

المحلية في قرية معينة ومحددة حيث وَجَب عليهم أن يسجلوا فيها، أما أولئك الفجر الذين تدفع بهم طرق حياتهم المتنقلة إلى خارج حدود وحداتهم الإدارية فيجب إصدار جوازات سفر خاصة لهم.

وبذلك القرار تداعى بنيان جامعي الضرائب من الفجر، ومع تأكيد ذلك بفرمان خاص أصدره الأمير عام ١٨٥٤ م، تم توجيه عدد من الشكاوى إلى أمير صربيا توصل فيه الفجر أن «حریتهم يجب ألا يتم سلبها منهم» وأن النظام السابق يجب الإبقاء عليه لكن تلك الشكاوى ذهبت هباءً.

استمر الفجر الرحل في دفع ضريبة الرأس حتى بعد عام ١٨٥٥ الذي حدث فيه الإصلاح المالي في صربيا وبعد التشريع الضريبي الجديد الذي صدر عام ١٨٦٤ م. وقد أكد الدستور الصربي لعام ١٨٦٩ م المساواة في الحقوق لكل الفجر لكن في الوقت نفسه (مع القانون الانتخابي) لم يسمح للفجر الرُّحَل بالمشاركة في انتخابات أعضاء البرلمان لأنهم لم يكونوا دافعي ضرائب عاديين وإنما هم يدفعون ضريبة الرأس المقررة للفجر، ولم يتوقف هذا التمييز إلا بعد صدور قانون الضريبة المباشرة لعام ١٨٨٤ م الذي وَحَد معايير الضرائب أمام كل الرعايا الصربيين ولم يعد هناك تمييزٌ للفجر كفئة خاصة من السكان حيث اكتسبوا في النهاية الحقوق المدنية نفسها التي تخص المواطنين الآخرين.

٤-١٣ الفجر والمؤسسات الدينية

صاحب وقت التحول نفسه في الحالة المدنية للفجر في صربيا، تحول آخر هو قيام العديد منهم بتغيير أسمائهم من أسماء مسلمة إلى مسيحية

ومعها أيضاً تغيير في العقيدة ، وقد تم تشجيع ذلك بواسطة السياسة الضريبية وغالباً ما كانت تُدار وتُنفذ بمبادرة من السلطات المحلية ، وهي السياسة التي طبقت أيضاً على الأراضي الجديدة ، في أقاليم نيش و فراني مثلاً التي منحها مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ م لصربيا ، حيث أصدر أسقف تيموك عام ١٨٩٢ م أمراً سرياً يلزم السلطات المحلية « بالتعاون » حتى يقبل « الكفرة » الدين المسيحي .

وبشكل عام كانت المؤسسات الدينية المسيحية متشككة إزاء الفجر وقال الأسقف البلغاري في حفل ديني أقيم عام ١٨٦٠ م « إنها خطيئة كبرى أن نهب الزكاة للفجر والملاحدة ... » .

وهناك اتجاه مشابه يكشف عنه وصف حادثة مأساوية يسجله إليكساندر باسباتي في عام ١٨٦٦ م في قرية صغيرة بالقرب من كورلو واسمها ويجير في فيما بين القسطنطينية وأدرينابول كانت مجموعة من الفجر يخيمون مع دبتهم ، وبأسمائهم (الإسلامية كانوا يعتبرون مسلمين في بوهيميا) وذات ليلة وبينما كان واحد منهم اسمه مصطفى يهم بعبور النهر ومعه دبه ، انغرس حتى صدره وسط الرمال المتحركة فصرخ طالباً النجدة وُسُمعت صرخاته في القرية المجاورة ، وحيث إن السكان افترضوا أن تلك الصرخات قادمة من لصوص ، لم يتحرك أي شخص للمساعدة ، وتركوه للموت دونما معونة ، وذهب أصحابه إلى القسيس ليقوم بدفنه لكنه رفض دفن الفجري الميت لأنه علم أن ذلك الرجل كان يسمى مصطفى حتى اليوم السابق لموته ، لكن أصحابه أوضحوا أن اسمه تيودور وفي النهاية عندما لم يكتشف الأتراك أي آثار للاختتان بجشته

أعادوه على أنه مسيحي إلى أهل القرية ودُفن وفقاً للطقوس المسيحية . وبغض النظر عن تعاليم الكنيسة ، ظلت اتجاهات المسيحيين من شعب البلقان نحو الغجر واحدةً من النماذج العرقية المتشددة ، كما يتضح من البرقية التي أرسلتها قرية إيكشي سو في مقدونيا إلى جريدة «نوفيني» الصادرة في استانبول عند نهاية القرن التاسع عشر :

«تخطر كم هذه القرية بواقعة مثيرة تتعلق بغجري اسمه ستيفان . لم يكن قادراً على إيجاد امرأة تحبه بصورة تكفي لقبولها الزواج به ، لذا ذهب إلى قرية أوليشتا ومعه أحد أصدقائه ، وهناك أخفيا أصلهما الغجري وبذلك وجدا امرأة غير غجرية ، تزوجها ستيفان وأخذ زوجته معه إلى إيكش سو ، وفي خلال أيام قليلة ذهب والد العروس لزيارتها وما إن اكتشف أن صهره غجري ، حتى جمع الوالد أشياء ابنته - بناء على نصيحة الناس - وأخذها إلى القسيس المحلي ، إذ كان من العار والمخالف للتقاليد أن تتزوج امرأة غير غجرية برجل غجري حتى لو كان الأخير مسيحياً وبعد أيام قليلة - أخرى - تزوجت المرأة برجل جديد دون أن تُنهي الزواج الأول بشكل قانوني ، وتركوا الغجري دون زوجة ، والبرقية تركز على أن ما حدث لم يكن قانونياً لأن الزواج الثاني تم تنفيذه دون حل عقدة الزواج الأول» .

وإلى مدى بعيد ، كان اتجاه المؤسسات الدينية الإسلامية نحو الغجر مماثلاً لاتجاه الكنيسة الأرثوذكسية ، إذ حتى اليوم يدفن الغجر في البلقان عادة في أجزاء منعزلة عن مقابر المسلمين .

وتنتشر بعيداً في البلقان حتى اليوم الحكمة التركية القديمة التي تقول

يوجد في العالم اثنان وسبعون عقيدة ونصف عقيدة، وذلك النصف هو عقيدة الفجر، ومثل تلك المقولة لدى المسيحيين تجعل من العقائد سبعة وسبعين عقيدة ونصف عقيدة والنصيب الأخير للفجر.

٤-١٤ الاتجاهات الاجتماعية نحو الفجر

الوضع الذي اتخذته المؤسسات الدينية تجاه الفجر كان في الخط نفسه لاتجاهات الناس الاجتماعية السلبية ككل، وبقدر ما هي بين الأتراك العثمانيين تجدها كذلك بين الرعايا المحليين من سكان البلقان ويشير إلى ذلك آمي بويه:

إن الأتراك كالمسيحيين تماماً يحتقرونهم «أي الفجر» ولذلك لا تجد بين السابقين ولا الأخيرين من يرغب -أبداً- في الأكل والشرب مع الفجر على المائدة نفسها.

وقد يكون أوجز وأبلغ تقييم للنموذج السلبي للفجر الذي يحمله السكان الآخرون في ظل الإمبراطورية العثمانية هو ما قاله كونستانطين جيريك:

«محتقرون من الأتراك ومكروهون من المسيحيين ينظر السكان المحيطون إلى الفجر ككل مكان آخر، على أنهم غير أنقياء، ومن جنس مختلف أخلاقياً وعقلياً».

وقدماً نستطيع أن نؤكد أنه ولمدى بعيد ظلت الاتجاهات نحو الفجر ثابتة لا تتغير في البلقان حتى اليوم رغم أن كل فرد مقتنع تماماً بوجود تسامح كبير بادِّ اتجاه المجموعات العرقية الأخرى.

وقد أسفرت الآراء الاجتماعية للجماهير عن طبيعتها في مجرى الحياة اليومية، كما هو واضح في العلاقات بين سكان الإمبراطورية المحليين وبين الفجر، وهي علاقة - غالباً - ما أدت إلى صراعات كان يتم حلها على حساب الإضرار بالفجر، وقد جاء وصف أحد الأحداث التي جرت في إقليم فارنا في النصف الثاني من القرن العشرين تفصيلاً فيما كتبه قنصلاً بريطانيا تشارلز بروفي وستانيسلاس كلير:

«يكسب الفجر عيشهم أساساً بإضافة حصيلة جهودهم من العمل الحرفي إلى ما يبيعونه من منتجات قطعانهم الصغيرة من الزبد واللبن في المدن، وعلى أي حال، طالما هم ليسوا ملاك أرض، كان عليهم شراء الدقيق لسد احتياجاتهم وشراء الحبوب لحيواناتهم من المسيحيين، وقد رفع القرويون أسعارهم فأصبحت كل سلعة تباع غالية الثمن جداً، وكان الدفع نقداً أو لقاء عمل، وعندما يقدم الفجر الثمن عملاً بجهدهم، كانت الفائدة تزداد ارتفاعاً حيث كان يمكن تخفيض أجر عمل الفجر بصورة عشوائية، من هنا كان الفجر مصدراً جيداً لانتفاع القرويين.

وعلى كل، كانت قطعانهم ترعى الحقول عندما يحل الربيع، فيمكنهم أن يبيعوا زبدًا ولبنًا أكثر في فارنا وهكذا يكسبون أكثر ويصبحون أقل اعتماداً على القرية، عندئذ استدعى سكان القرية المحليون قاداتهم لعقد اجتماع قرووا على أثره إبعاد الفجر، وحيث كان الفجر يقومون بتربية قطعانهم في المراعي دون دفع ثمن لتلك الميزة ويشترون قليلاً مما تنتجه القرية في الوقت نفسه - ويجب أن نضيف في هذا الصدد أن المسيحيين أنفسهم لا يدفعون شيئاً لقاء استخدام تلك المساحات الشاسعة من

الأراضي بمراعيها - لكنهم أثاروا ضجة لاستخدام الفجر لتلك الأراضي .
وقد انتهى الضغط الذي أعقب ذلك «بطريقة رقيقة !!» فذات ليلة
ودون سابق إنذار اندلعت النار في منازل الفجر حتى يُضطر المساكين إلى
الرحيل ، وفي الشتاء عاد الكثير منهم وسألوا إذا ما كانوا يستطيعون
الإقامة في مكان مختلف بالقرب من القرية ، ومنذ ذلك الحين أصبح
الشتاء بالنسبة لسكان تلك القرية «ديري - كوي» أكثر فصول السنة
ربحاً بسبب وجود الفجر ، فمنحوهم الموافقة - بكل سرور» .
وقد شكّا الفجر للسلطات العثمانية دوئماً مجيب ، وكان تفسير ذلك
«الصمت» أن لديهم تعليمات من استانبول بأن يكونوا حذرين كي لا
يؤلموا البلغاريين .

٤-١٥ بداية الخلاص للفجر

شهد القرن التاسع عشر مرحلة جديدة في تطور وعي الفجر
بأنفسهم في البلقان عندما بُدلت المحاولات الأولى لتناول مسألة
خلاصهم الاجتماعي . ففي عام ١٨٦٦م قام الكاتب البلغاري المعروف
بيتكو راشيف سلافيكوف بنشر مقالته «الفجر» في جريدة تصدر في
استانبول تدعى «جايدا» ، وزعم في المقالة أن الفجر انحدروا من مصر
القديمة وأسند إليهم عملية جلب إنجازات علومهم إلى اليونان القديمة ،
كما اعتقد سلافيكوف أن لغة الفجر قد أثرت على اللغة اليونانية ، وفسر
اسم «أثينا» باشتقاقه من كلمة أتنجاني ، كانت الخلفية العلمية للمقالة
ضعيفة ، وكان دافعها إلى حد كبير هو المشاركة في النضال الاجتماعي

لاستقلال الكنيسة البلغارية لتنفصل عن سيطرة بابوية اليونان ، وكانت الجريدتان جايدا ومقدونيا القوة الدافعة وراء هذه الحركة وكان بيتكو سلافيكوف أحد قادتها . وكان للمقالة تأثيرٌ ذو قيمة على زعماء المجتمع العجري وبعد عام من ذلك التاريخ نشرت جريدة مقدونيا التي كان يحررها بيتكو النص التالي في « خطاب إلى المحرر » وقعه من أسمى نفسه « مصري » من بريليب في مقدونيا :

« بريليب - ٣ يونيو ١٨٦٧ م

عزيزي محرر جريدة «مقدونيا»

كل شخص يعلم السبب في أن المصريين هم أكثر الناس امتهاناً بين كل المسيحيين ، لأنهم لا يتبعون أسرار العقيدة الأرثوذكسية بدقة أو على الأقل ليس بالطريقة التي يريدونها منهم المسؤولون عن النظام من الفاناريين^(١) ، وهم التابعون لبابوية اليونان الأرثوذكسية ، وسوف تدرك ما وراء ذلك فيما بعد والآن لو أنك سألت أحداً من الفناريوتس هؤلاء من هم ؟ ولماذا وصلوا لتلك المناصب ؟ لسوف تسمع الإجابة المعتادة بأنهم حراس العقيدة وأنهم الوحيدون أصحاب الحق في ذلك ، لأنهم أتباع حواربي المسيح ، ولو تأهبت لفحص أمورهم سوف تكتشف أنهم

1 - Phanario مسؤولون يونانيو الأصل وحكوميون يعملون تحت إمرة الأتراك

ويعيشون بحي اسمه « phanar » في القسطنطينية . المترجم

مدمري العقيدة وأحكامها مستغلين براءة وبسطة القبائل الأخرى، وهم يستخدمون الدين لإيقاف التقدم وإبقاء أصحابه خاضعين ومستعبدين . وبذلك يدمرون عدالة إلها التي منحها لكل إنسان على الأرض ممن تعمّدوا باسمه « لكم جميعاً يا من تعمّدتم باسم المسيح لقد ألبستم أنفسكم المسيح » (سفر الجالاطين - الآيات ٣-٢٧) وهم يصرخون بأن على كل الشعب المؤمن بالأرثوذكسية أن يخضع للسلطة الروحية لأولئك المسؤولين اليونانيين وليس لأي أحد آخر أن يحوز سيادتهم الروحية . وفي إطار ذلك حدث الكثير من الأخطاء، وما زالت الأخطاء مستمرة حتى اليوم نحو البلغاريين الذين يحمون حقوقهم بالعدل، تلك الحقوق التي منحت لهم ليس فقط من مبادئ الحواريين وإنما بسبب أنهم كانوا يحوزون بعضاً منها في الماضي . لكن اليونانيين يصرون على عنادهم ودعواهم دون أن يدركوا أن الزمن قد تغير ولكنهم بانتمائهم للسلافيين روحياً يزعمون أن لديهم الحق في تنوير الناس ثم يسرقونهم جهاراً، كيف يمكن ألا يشعروا بالخزي عندما يصرخون بأمور مخجلة، خاصة أن أبسط الناس يعلم أنه ليس بين حواربي المسيح - الذين كانت مهمتهم هداية الناس بعقيدة المسيح - من كان اسمه هيلين^(١)، وهذا يبين بوضوح أن الأمر ليس

1 - هيلين^١ EAA بمعنى يوناني ويقصد الكاتب أن رتبة القساوسة ورجال الدين ليست

مقصورة على كل من هو يوناني، وذلك من باب السخرية . . المترجم

مقصورا على الهيلينيين لهداية الناس إلى فضل الروح القدس ، وإذا ما كانوا كما يدعون هم «فرح الله» وكل إنسان آخر مشكوك به ولا يستحق تلك الدرجة .. فلماذا إذن تكلم الحواريون بكل اللغات عبر الروح القدس وليس باللغة الهيلينية «اليونانية» ويعظون كما أخبرهم المسيح (اذهبوا لكل العالم وعظموا وبشروا بالأخبار السعيدة لكل الخلق) - (مرقس - سفر : ١٥-١٦) لا إلى اليونان «وحدها» ، والآن وقد رأينا أن اليونانيين لم يتم اختيارهم بكرم الروح القدس لهداية الناس ولا هم «فرح الله» أو أحبهم إليه ، كما يقولون ويدعون خاصة ، فلماذا - إذا ما كانوا أولياء مخلصين لتعاليم المسيح - يقولون أن لهم الحق وحدهم في السيطرة على الناس الأرثوذكس ولماذا يعاملونهم كعبيد أو ما هو أكثر - وبصورة مخجلة - يعاملونهم كمتاع من أملاكهم ؟

ودعنا نكشف موقف الكنيسة اليونانية الضعيف ، إن البلغار والمصريين - يقصد الفجر - وصلوا إلى تلك الحالة من البؤس والمهانة حتى أننا لا يمكننا أن نجمع أطراف شجاعتنا ونقوم بتعليم أنفسنا ، حيث دفعتنا أحكام الكنيسة إلى اليأس حيث بينت لنا عبر مجلسها «الموقر» أننا لسنا مسرة الله ، ولماذا يلجأ المصريون إلى عقيدتين بل ثلاث في نفس الوقت ؟ ذلك لأنهم - ورغم أنهم مسيحيون - غير مسموح لهم بالمشاركة في أسرار العقيدة وبقية المسيحيين يرتابون فيهم ، وهذا هو السبب في لجوئهم لديانة أخرى برغم احتفاظهم بديانتهم الأولى ، وبهذه الصورة ولكونهم مشتتين ويائسين لا يستطيع المصريون الاحتفاظ بمجتمع خاص بهم كما لا يستطيعون الاهتمام بتعليم أنفسهم .

وسوف تجدون أن هذا هو ما يحدث تماما للبلغاريين، وهناك مقالة نشرت في جريدة جايدا (العدد ١٥ السنة الثالثة) أثبتت أن أصولنا تعود لمصر^(١) وهذا واضح من المهارات التي نملكها وكذلك من لغتنا ومن مسمانا Egyptian - gypsy لكننا دفعنا دفعا إلى اليأس وتحولنا إلى ما نحن عليه الآن، وكيف يمكن أن نكون أنصاف مسيحيين وأنصاف غير مسيحيين في عقيدتنا؟ وعلى أي مبدأ - وفقا لما قاله قداسة الأب - يصرح بأن المصريين لا يشكلون سرورا للرب؟، لو أن قداسته بنى دليله هذا على حقيقة أن المصريين قد قاموا بتعذيب الإسرائيليين ذات مرة - أولئك الذين ارتكبوا الخطيئة ولم يقبلوا الديانة المسيحية، ألا يمكنه أن يرى ما يقوله الإنجيل «لذا فأي إنسان يكون في المسيح، سيخلق من جديد، فالقديم ذهب، والجديد يأتي» (كورنثيا - ٢، ٥، ١٧) فإن الأمر لو لم يكن كذلك لكان اليهود والحواريون أولى بالشك والريبة طالما كانوا تقريبا أعداء الله، الذي عوقبوا من أجل مخالفته مرات عديدة بل إنهم قتلوا الرسل الذين بعثهم الله وصلبوا ابنه المحبوب، «لكن المسيح عيسى جاء إلى العالم لينقذ الخطاة» (تيموثي ١ - ١٥: ١).

وأيا ما كانت الطريقة التي حدث بها ذلك، سواء من الجهل أو من

1 - مع كامل التقدير للأصول العرقية للغجر إلا أن المذكور هنا ليس بحثا علميا

وأنثروبولوجيا لأن الدراسات العلمية أثبتت أن أصول الغجر تعود إلى وسط آسيا ارتحلوا غرباً

هروبا من التتار. المترجم

عداء وأوهام ذاتية شعر بها قداسته تجاه المصريين، ولأجل معاقبتهم منعهم من أداء شعائر الدين، كيف يمكن لأتباع حواربي المسيح أن يعترضوا على ما حدث؟ نعم... فهم سوف يعبرون عن بالغ أسفهم، لأنهم لا يستطيعون تغيير أدنى أمر مما أورثناهم إياه!، وكنا سنتفق معهم في ذلك لو كانوا تابعين مخلصين للحواريين، لولا أن ذلك ليس فقط لا يمثل واجب الحواربي الوفي وإنما هو على عكس ما يجب أن يفعله، بالإضافة إلى أننا نرى أن كل ما يؤدي لفائدة أولئك اليونانيين بغض النظر عن ابتكره أو أوحى به فهم يقبلونه على الفور، ولا يعترفون بما لا يفيدهم ولا بأي شيء لا يمايز بين الناس داخل إطار الدين المسيحي، رغم أن المسيح عيسى قد نهى عن ذلك التمييز بنفسه، وبتلاميذه حين قال «لذا لا يوجد اختلاف بين اليهود وبين أبناء الأمم ولا بين العبيد والأحرار ولا بين الرجال والنساء وكلهم واحد في اتحادكم بالمسيح عيسى» (جالاتيا ٣: ٢٨) والآن هيا نرى لماذا لا يمنح اليونانيون الحقوق الدينية للشعوب الأخرى ولكن يقومون بتدميرهم بعنف، وأنا لا أملك القدرة على البحث في أسباب معاملة اليونانيين للبلغار بهذا الأسلوب، وعلى كل حال فأنا هنا لغرض آخر مختلف أريد أن أبين ما يحدث مع المصريين، الذين لا يوليهم أحد أي اهتمام، وأريد أن أوضح كيف ضاع إيمانهم وكيف أدى ذلك إلى مرضنا الأخلاقي، لقد ثبت أن الناس في اليونان عام ١٨٠٠ قبل الميلاد كانوا همجاً ومتوحشين يعيشون في الغابات والأكواخ والكهوف ويأكلون الجذور والنباتات البرية ولا يعلمون شيئاً. عندما كان اليونانيون بلهاء، وكما نقول، يقتاتون على المرعى - أي كانوا متخلفين - وصل المصريون

إلى درجة عالية من التعليم والثقافة. لكن أولئك أحدثوا الاضطرابات في مصر، وبسبب ذلك أبعدوا ألفا منهم وارتحلوا إلى اليونان، وجلبوا معهم فنونهم القديمة وأبجديتهم، وبفضل المحاولات الدؤوبة من المصريين لتعليم اليونانيين المتوحشين، تم ترويضهم واختلطوا بالتدريج مع زوارهم المثقفين واستقر الآخرون في أثينا حيث اختاروا كيكروبس زعيما لهم وأثينا عاصمة لهم حيث اكتسبوا اسم الأثينيين وانسجموا ووصلوا إلى درجة تزيد أو تقل في الكمال الثقافي مقارنة بين الشعوب الأخرى، التي تعيش ذلك الزمن، وهكذا انتشرت الاستنارة بين الشعوب الأخرى وهو ما يفخر به اليونانيون اليوم بقولهم إنهم أضأوا العالم بثقافتهم، ولعلمهم أن العالم سوف يكشف آجلا أو عاجلا أن ذلك التنوير لم يكونوا هم مصدره قرروا مهاجمة عقيدة المصريين الذين سيصبحون عند ذاك مكروهين من كل فرد ومن ثم سيفرقون في يأس كبير ثم يختفون من على وجه الأرض، وقد ألح اليونانيون في ذلك وبسببهم منع القديس جريجوري المصريين من الشعائر فكيف لأولئك اليونانيين ألا يشعروا بالعار حينما يصيحون في كل العالم بأنهم السبب وراء انتشار التنوير في أوروبا لهذا السبب نفسه على الأوربيين أن يكونوا شاكرين لهم وأن يساعدهم عند الحاجة ؟ عليهم أن يخلجوا وأن يخرسوا، فإذا كان لهم أن يفخروا على الأوربيين بذلك فعليهم أن ينحنوا أولا وأن يقعوا سجدا أمام أقدامنا، لأن عليهم أن يقرروا بأننا قد منحناهم التنوير «والثقافة» وأن يقوموا بواجبهم وهكذا يعطون مثالا في الإخلاص للآخرين.

التوقيع «مصري»

ويعد هذا الخطاب وثيقة قيمة تبين تطور الوعي الاجتماعي بين الغجر في بلغاريا في القرن التاسع عشر وكاتب الخطاب بجانب كونه من المتعلمين جيدا بالنسبة لعصره له معرفة كبيرة بكتابات الكتبة وفي الصحافة أيضا ويمكن فهم هذا الخطاب بدقة فقط في إطار التطور الاجتماعي المذكور سابقا في بلغاريا في مواجهة التبعية الدينية لليونان (البطريركية) وتعليماتها للكنيسة البلغارية التابعة لها ويعتبر ذلك المصري «المجهول» وهذا الصراع الكنسي حركة لحماية حق كل شخص في المساواة الدينية والمدنية وشعر المؤلف باتجاهات الاحتقار المتكرر للغجر التي كانت سائدة في المؤسسات المسيحية ذلك الوقت واستعرض مدى ظلم ذلك الاتجاه، ولكي يدافع عن الحق التاريخي للمصريين في حياة مجتمع خاص بهم والاهتمام بتعليمهم بأنفسهم لجأ إلى جدل شبه علمي وكان في تلك الحالة مأخوذاً بمقالة سابقة مقتبسة من جريدة جايدا وكانت المصدر الوحيد المتوافر أمامه، ويوضح الخطاب بداية مرحلة جديدة من تطور الوضع بين بعض أعضاء مجتمع الغجر في البلقان خلال القرن التاسع عشر ويتشابه مع تلك المرحلة الجديدة عملية أخرى هي الخروج من الإطار «الداخلي» للمجتمع التقليدي بحثا عن مكانة مساوية في الواقع الاجتماعي الثقافي «الخارجي» الجديد. إلا أنه يخضع لمعايير وقيم الغجر، وتحدد الظروف التي تعيشها البلقان شكل هذه الأنشطة الاجتماعية الجديدة - ومثل باقي شعوب البلقان، كان الغجر يسعون بهمة شديدة لإيجاد ماضٍ باهرٍ لهم بالإضافة إلى خلق ميثولوجيا تاريخية قومية لدعم توجههم خلال نضالهم للخلاص المدني ويبقى سؤال واحد مفتوحا... من

كان ذلك المصري كاتب الخطاب ؟ رغم أنه يبدو غير موجود في الواقع إلا أنه في النهاية تتضح إمكانية تميزه ويمكن البحث عن تفسير لذلك في المادة العرقية التي نشرها ماركو تسيبينكوف مع نهاية القرن التاسع عشر ففي وصف لنقابات مدينة بريليب يعلق على وجود نقابات متعددة للفجر منها (صانعو الحدوات وصانعو الكمان والحمالون) الذين كانت لهم أعيادهم الدينية الخاصة مثل عيد القديس اتناسيوس وعيد القديس أنتوني والسبب وراء كل ذلك هو الحلاق الفجري (اليانو مشيف) إذ كان لذلك الحلاق زبائن ذوو حيثة يحضرون إليه في محل عمله وتوصل بالتدريج إلى معرفة خلفية أولئك الزبائن جيداً ولم يخجل من كونه «مصرياً - غجرياً» لأن تلك الكلمة اشتقت كما كان يشرح من اسم مصر وقد أمل ذلك الرجل أن يصبح قسيساً للفجر ومرت سنوات عدة وهو يمتلئ بالأمل في تحقيق تلك الأمنية وظل يعمل وسط الفجر ناصحاً إياهم بعدم شرب المسكرات وبضرورة الالتزام بالسلوك الكريم وبعدما اكتسب احترام الفجر أقنع ثلاث نقابات بالاحتفال بعيد القديس أنطوني وبمرور عامين أو ثلاثة نجح في أن يصبح قسيساً في تساريجراد عاملاً في خدمة أسقف بلغاريا «نستطيع أن نتيقن تماماً أن إيليا نوشيف كان هو المصري⁽¹⁾ الذي كتب الخطاب لحرر جريدة مقدونيا وللأسف لم يعلم

1 - أريد إعادة التنبيه إلى أن كلمة مصري تستخدم هنا بديلاً لكلمة غجري دونما مبرر

أحد أي شيء عن ذلك الشخص بعدما أصبح قسيسا لكننا واثقون أنه أصبح بين أوائل القادة لحركة الخلاص المدني للغجر ليس فقط في مقدونيا والبلقان وإنما في كل العالم أيضا .

٤-١٦ أول شاعرة غجرية «رومانية»

ظل السؤال عما إذا كانت جينار انجيسيك - التي وصفها العالم النمساوي المجري هنريك فون فيليسيلوكي باعتبارها أول امرأة شاعرة من الغجر حقيقة أم لا - سؤالاً بلا حل لفترة تعدت القرن وقبل أن يستطيع المرء إجابة السؤال ، عليه أن يُقيّم الإرث العلمي الخصب لفيليسيلوكي نفسه فخلال عصره لم يكن محترماً في الدوائر العلمية واحتقره معاصروه لارتباطه بالغجر إذ عاش وتنقل معهم في عدة مناسبات لفترات قصرت أم طالت وقد اتهمه عدد من المؤلفين - حديثاً - آخرهم كان جوزيف ليبا بتزييف المادة العلمية التي سجلها وقام بنشرها وهي مادة نادرة ما يستخدمها الأكاديميون هذه الأيام فلو كان لنا أن نصدق فيليسيلوكي نراه قد قابل جينا رانجيسيك في سلوفاينا التي كانت عندئذ ضمن مواطني الإمبراطورية النمساوية-المجرية عندما كانت عجوزاً تماماً... وغير قادرة على جمع السيرة الزمنية الدقيقة لحياتها وقد ماتت في ١٧ مايو عام ١٨٩١ م وقد تم تقديم جينا له على يد القنصل المصري في سومبور (فوي فودينا اليوم) الذي اشترى بعد وفاتها ثلاث كراسيات من أقاربها تحوي ٢٥٠ قصيدة لها كتبت باللغة الرومانية التي هي لغة الغجر وقد نشر بعضها من هذه القصائد فيما بعد فيليسيلوكي نفسه ودون تعليق على

مدى صدقها أو أصالتها وبذلك يمكننا أن نلمس باختصار حياة جينا كما وصفها فيلسوفها كي إذ بنى تقريره على محادثات جرت له معها وحول شعرها ومعظمه يعد سيرة ذاتية.

وليس واضحا بدقه أين ومتى ولدت جينا إذ تعود ذكرياتها إلى ثورة المجريين عام ١٨٤٨م عندما كانت في سن العاشرة حينما كانت ذلك الوقت في مدينة فاراجدين في كرواتيا الآن.

ومن هناك ومع رجال قبيلتها من مجموعة الفجر الرحل «نيفيليا» هربت إلى صربيا لأن الكروات أرادوا دفع الفجر للحرب ضد المجريين، وعند سن الثانية عشرة تقريبا في بلغراد انفصلت عن جماعة الفجر التي كانت ترتحل معهم أثناء مطاردة الجنود الأتراك لهم بسبب الشك في سرقة قاموا بها وعبرت نهر الدانوب وهربت إلى المجر وقابلت جينا حينها تاجرا أرمنيا ثريا في القسطنطينية فتبنى الفتاة وأخذها معه وهناك أرسلها إلى مدرسة أرمنية مدة ثلاث سنوات حتى إنه استأجر لها رجلا ألمانيا كي يعمل مرشدا لها وكان الأرمني يعيش مع أخيه الذي وقع في حب جينا فقام بخطبتها وبدأ العيش معا دون زواج وهنا بدأت جينا تكتب الشعر لأنها وفقا لما قالته في شعرها «أنا سعيدة جداً مع رجلي الشيخ» لكن سعادة الأسرة دمرها شاب ألباني أنيق اسمه «جريجور كوراهون» حيث أقنعها بالهرب معه بادعائه أن السلطان أمر بقتل الأرمنيين في القسطنطينية فذهبوا إلى أدريانا بول حيث أفادها ذلك الألباني باستحالة عودتها إلى منزلها لأن زوجها قد سرق وقتله الألبانيون وإذا عادت يمكن أن يُقبض عليها باعتبارها شريكة في الجريمة. استقر جريجور وجينا

في ادريانا بول وعاشا معاً أربع سنوات ، عمل خلالها جريجور كمراقب للقوافل مصطحباً إياهم إلى حدود المجر وفي الطريق كانت القوافل يتم نهبها بواسطة قطاع الطرق الألبان الذين كانوا على صلة بجريجور وتأخذ الأسلاب إلى الأماكن الآمنة وسط الجبال الألبانية وخلال معظم تلك الرحلات كانت جينا بصحبة جريجور الذي أغرقها في الهدايا الثمينة لكنهما تعاركا بسبب محاولتها الهرب إلى القسطنطينية وجرحها في ذلك العراك بشدة وخرجت بسبب ذلك بندبة عميقة في وجهها ظلت معها بقية حياتها .

ندم جريجور على ما فعل ولكي يحل السلام بينهما وعدها بالبحث عن أقاربها في صربيا وإحضارهم لها فترك جينا مدة ثلاثة أشهر مع رجل مجري كان قد انتقل هناك بعد قيام الثورة المجرية ووقعت جينا في حب رجل آخر وهو صربي ذكرته في أشعارها لكن ذلك الصربي سرقها ثم هجرها وظلت جينا تهيم على وجهها حول أدريانا بول عدة أسابيع تعاني الجوع في أسمالها البالية ثم يحدث أن تقرر الذهاب بحثا عن زوجها الألباني جريجور الذي وجدته على مبعدة ساعات قلائل خارج البلدة وتوصل إلى أقربائها وكانوا قد أقاموا خيامهم بالفعل هناك وبدأت الاحتفالات فور عودتها وبعد عدة أسابيع من الاحتفال والعراك ارتضت جينا السلام مع جريجور الذي أهداها كثيرا من العطايا الغالية ثم رحلت الجماعة عبر بلاد البلقان مدة شهرين وعندما وصلوا ألبانيا وجدوا جريجور عند شاطئ البحر فاصطحبهم جريجور إلى حدود العرب حيث منحهم نقودا وهدايا قيمة ابتاعوا بثمنها ٦٠٠ خنزير وعاشوا

سعداء مدة طويلة ورفضت جينا الذهاب مع جريجور والمجموعة وبقيت جينا مع أهلها وكانت تقترب من الثالثة والعشرين من عمرها في ذلك الوقت وبدأت حياة بدوية متنقلة ثم تقابل سيذا مهذبا من فيينا يشتري منها قصائدها وخلال سنوات ترحلها لم تكتب شعرا وإنما قضت وقتها آملة أن يعود إليها حبيبها الألباني وبعد عام لاحق عندما بيعت هداياه أو أكلت هربت من أقاربها وذهبت إلى ألبانيا للبحث عنه فكتشفت أنه هارب إذ تطارده السلطات التركية بسبب السرقة ثم انضمت إلى أقاربه في إيطاليا مصحوبة بامرأة ألبانية صغيرة، رحلت جينا نحو إيطاليا عبر البحر وبحشت عن جريجور في كل جنوب إيطاليا حتى وصلت نابولي ومن هناك ذهبت إلى سيراكوصه جزيرة في صقلية حيث قابلت يهوديا ثريا في رومانيا هو جاكوب هورنيشتين وكان تاجرا يصدر الخمر الصقلي إلى ألمانيا وفرنسا وإنجلترا ويتاجر في المزخرفات والمزينات المستوردة من باريس إلى شمال أفريقيا حيث يملك أخوه الأصغر محلا في المغرب، كان صديق جينا الجديد رجلا مثقفا له اهتمامات بالفنون والعلوم وخلال السنوات الست لإقامتها في صقلية صاحبته جينا في رحلاته التجارية حول البحر المتوسط وفي شمال أفريقيا استأجر جاكوب هورنيشتين صبيا من الغجر اسمه بيتروس كانداليدس كي يصبح خادما لجينا وكان أجداد بيتروس قد انتقلوا إلى أفريقيا من اليونان وبعد سنوات ست لاحقة بدأت المتاعب إذ رحل جاكوب في رحلته التجارية المعتادة تاركا جينا خلفه وكان ذلك عندما بدا بيتروس يكبر فبدأ يعيشان معا بحرية كالغجر وعند اكتشاف جاكوب ذلك انتابه غضب شديد فأرسل بيتروس

إلى محل أخيه في المغرب هنا هربت جينا من المنزل ساعيةً للانتحار لكن حينما ألقت بنفسها في البحر أنقذها بعض البحارة العابرين فعادت إلى جاكوب ثم أصابها المرض الذي أدى لأن تفقد جمالها ، وفي وقت لاحق ذهب جاكوب للقاهرة مع جينا للتجارة حيث أصابه المرض وبناءً على نصيحة الأطباء عاد ليعيش في القسطنطينية ووصلت أختاه قادماتان من بوخارست للعناية به ، وبدأتا النزاع مع جينا وفي ٢٣ مارس ١٨٦٦ مات جاكوب هورنشتين وأُخذت جينا في نفس اليوم إلى السجن متهمة بتسميمه وأكد تشريح ما بعد الدفن أنه لم يمت مسموماً لكن جينا ظلت في السجن لأن أقارب جاكوب كيما يستمرون في الاحتفاظ بميراثه اتهموها بالسرقة والاحتيال ، وقضت جينا ثلاثة أشهر في السجن ثم أُفرج عنها وأُطلقت لتسلم ١٠,٠٠٠ دوكا تمساوية وأودعت جينا النقود لدى صراف أرمني وعاشت في القسطنطينية كامرأة ثرية لكنها بعد عام ونصف بعد ذلك قامت بسحب نقودها ورحلت إلى صربيا بحثاً عن أقاربها وقضت معهم يومين فقط وزعت خلالها ١٠٠٠ دوكا بينهم واحتفظت بـ ٨٠٠٠ دوكا لنفسها ثم غادرت صربيا إلى باريس وهناك أنفقت كل ميراثها خلال عامين وقد عاشت لفترة مع رجل من ترانسلفانيا ثم تراكت عليها الديون وعلى ذلك تم ترحيلها إلى صربيا بواسطة السلطات المحلية وقضت العشرين سنة الأخيرة من عمرها مع أقاربها تعيش حياة متنقلة بدوية وماتت عام ١٨٩١ م وهنا واحدة من قصائد جينا مترجمة عن الرومانية وعليها ألا ننسى على كل أن مصداقية وجودها تظل خاضعة للشك .

قصيدة جينا رانجيسيك..... مأخوذة من

Wlislöcki Aus dem inneren Leben

der Zigeuner برلين عام ١٨٩٢

سيئة الحظ وتعسة
كانت كل أيامي الماضية
لأن الله لم يمنحني
حتى ولا هبة حلوة واحدة
بحثت هنا وهناك
وتحولت بلا هدي
فلم أجد أحداً
يا لسوء حظي
حينما أكون فوق التلال
أتمنى أن أكون في الوادي
وحينما أنام في الحقول
أحلم بالنوم فوق صفحة البحر
ياه..... وأن أكون نجمة
وسط ظلمة الليل
وأن أرتقي للقمر
فأنا مجنونة بالحب
ولو كنت أجمل ورده في الكون
عالية فوق جبل هيموس
إلا أنني مجنونة بالحب

فتشقى الأماكن بالذهب
بحب كبير وخوف
أتشوق لرجوعك
ولتدع الأيام تمر سراعاً
حتى تعود لي من جديد
تذهب أو تقيم
لما أعيش في شك يقيم
أنا لا أدري... يا إلهي
هل سيتفهم إثمى...
عندما تكون نائياً في البعيد

٤-١٧ عبودية الفجر في مولدا فيا وفلاشيا

عودة إلى القرنين الرابع عشر والخامس عشر نجد أن الفجر في هاتين الولايتين العثمانيتين (مولدافيا وفلاشيا) كانوا يعيشون حالة قانونية تم تأكيدها عدة مرات تُسميهم عبيد التاج والمقصود الأمير أو الأديرة أو النبلاء، ولم يكن الشكل الذي اتخذته العبودية بقدر البساطة التي تمثلها المؤلفون إذ كانت غالبية الفجر يشكلون فئة «الفاتراش» وهم عبيد المنازل أي الخدم الذين يمتلكهم غالباً النبلاء والأديرة وكان تشغيلهم يتم أساساً في الزراعة ومارسوا حرفاً متعددة وعملوا خدماً أو موسيقيين وفي أعمال منزلية متنوعة وكانت ثاني أكبر الفئات في الفجر فئة «اللايش» وهم المتجولون فرغم أن أولئك المدعين باسم «عبيد التاج» كانوا أحياناً مملوكين للأديرة أو النبلاء وكبديل لرفع الالتزام السنوي كان يُسمح

لهم بالعيش في حياة بدوية متنقلة وذلك لممارسة حرفهم التقليدية مثل الحدادة وصناعة الأوعية النحاسية وإصلاحها والأدوات الخشبية والأمشاط وقضبان النوافذ والسلع الأخرى بالإضافة إلى عملهم كأجراء موسمين وعاش نفس الوضع الاجتماعي فئتا الأوراري والروداري الذين كانوا يعملون في تعدين الذهب في الجبال مع بعض القبائل الأخرى التي عملت بحرف مختلفة.

وهكذا تبرز لنا صورة مناقضة عن حالة الفجر العبيد في مولدافيا وفالاشيا فهي من ناحية تصورهم محرومين من الحقوق المدنية وأن عددا كبيرا منهم تم استغلالهم ببشاعة وبيعوا كالسلع ونالهم أفظع أنواع العقاب وكان الإعدام الجماعي بالخازوق واحدا من الأساليب التي واجهوها في أغلب الأحوال، ومن ناحية أخرى تمتع العبيد بميزات متنوعة لم تكن متوافرة لأغلب فئات المجتمع المحلي خاصة القرويين الرومانيين، وعلى أي حال كان الفجر يعتبرون طبقة اجتماعية دنيا ككل عدا حالة الفجري ستيفان رازفان الذي حكم كأمر لمولدافيا خمسة أشهر عام ١٥٩٥ م.

ومع استمرار تأثر ولايتي مولدافيا وفالاشيا بالرأي العام الأوروبي ازدادت الضغوط لإلغاء الرق خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، وقد حدد التشريع الصادر عام ١٨١٦ م أربع فئات من المواطنين؛ النبلاء والأحرار والعبيد والمحررين، وكانت الفئتان الأخيرتان من الفجر أساسا، وسياسة تحرير العبيد نص عليها دستور ١٨٣١ م بفالاشيا وكذلك القوانين المدنية لولاية مولدافيا عام ١٨٣٣ م، والتي جاء فيها لأول مرة أن الفجر في الولايات المحلية قد تم إقرار حق كونهم أفرادا في المجتمع

بدلاً من اعتبارهم ملكية خاصة، وفقاً للقانون الروماني الذي تأسس على مبادئه النظام القانوني للمحليات، إذ لو قُتل أحد من العبيد فلن يفلت الفاعل دون عقاب وفي الوقت نفسه ظل العمل التجاري مسموحاً به للفجر بما في ذلك البيع داخل الأسواق العامة إلا أن منع الزواج بين الفجر والأحرار استمر في التطبيق ويصبح أطفال مثل هذا الزواج - إن وقع - عبيداً، وكانت هناك محظورات أخرى مستمرة في التطبيق.

وفي ظل شروط معاهدة باريس التي أنهت حرب القرم كان على الولاياتين أن تهجرا العبودية...، ففي مولدافيا عام ١٨٥٦ م تم تقديم قانون تقوم الدولة - تنفيذاً لبنوده - بشراء العبيد من مالكيهم بشكل جماعي وتحريرهم، وتم تمرير قانون في فالاشيا في ذات الوقت تقريباً، وقد حدثت تلك العمليات بصعوبة كبيرة وأحد أسباب تلك الصعوبات كان عدم رغبة عدد كبير من الفجر في تغيير حالاتهم المدنية من عبيد لأحرار وهناك العشرات من الوثائق التاريخية التي تؤكد ذلك، فالعديد منهم كان في حالة أفضل بالتزامه بدفع ضريبة سنوية ثابتة من أن يتحول إلى مواطن عادي عليه التزامات ضريبية أكثر بلا ملكية مع حرية محدودة الحركة.

وفي عام ١٨٥٧ م في فالاشيا تم شراء ٣٣٢٦٧ أسرة من الفجر وتحريرها من العبودية كان منهم ٦٢٤١ من عبيد الدولة و ١٢٠٨١ من عبيد الأديرة و ١٤٩٤٥ مملوكين للأفراد، أما الإحصائيات الخاصة بمولدافيا فهي ناقصة ولكن التقديرات تصل بالعدد إلى ٢٠٠٠٠ أسرة وإذا كان متوسط عدد الأسرة خمسة أفراد يكون من ذلك وجود ٢٥٠٠٠٠ غجري عاشوا في الولاياتين في ذلك الوقت، ويُعد عام ١٨٦٤ م هو التوقيت النهائي

للقضاء على العبودية في هاتين الولايتين حينما وحد الدستور بينهما في دولة واحدة هي رومانيا.

٤-١٨ هجرة الغجر

كان غجر مولدافيا وفالاشيا (رومانيا حاليا) بأحوالهم المدنية الخاصة هم القوة الرئيسية وراء ما يسمى «الغزو الكبير» لجماعات الكالديراري لغرب أوروبا، ويجب أن نشير -فعلاً- لبعض الفئات وليس إلى المجموعة كلها طالما كان هناك العديد من جماعات الغجر من المحتمل أن تكون ذات علاقة وسط فئات «اللاشي» منهم، بينما نجد فئتي الأوراري والروداري من بين الأسماء العامة للقبائل، قد حافظوا على التقاليد القديمة لحياة البدو الرُّحَّل، وخلال العمليات الطويلة التي تمت للقضاء على العبودية في الولايتين، ارتحل عدد كبير إلى ترانسلفانيا وغرب بانات في الإمبراطورية النمساوية المجرية حيث وجدت جماعات كبيرة من الغجر الرُّحَّل لها علاقة قرابة بهم - وكان ذلك التركيز في وجود الغجر نقطة البدء لهجرات غجرية أخرى ساعدت بالتدريج على تحرك أعداد كبيرة منهم كانوا مستعدين للاستقرار في وسط أوروبا، وباستمرار تحركهم واختراقهم أراضٍ جديدة لا يمكن البحث عن السبب الشامل القاصر وحده على هذه الهجرات الجماعية المتوالية في القضاء على العبودية في ولايات شمال الدانوب رغم أن ذلك السبب - القضاء على العبودية - كان العامل الفعال والمساعد الذي أطلق ضربة البدء لعملية كانت نتاج تطورات اقتصادية واجتماعية عامة خلال تلك الفترة، وقد أدت الثورة

الصناعية وبداية العصر الحديث في أوروبا إلى ظهور الحاجة لتغيرات أساسية في حياة الفجر الرُّحْل، وكان عليهم إيجاد أنماط جديدة للعمل وللهرب من الحدود الإقليمية المكانية للمقاطعات التي تنقلوا فيها تقليدياً في حالة ارتحالهم - وتزايدت معدلات هجرة الفجر خلال الحقب الأخيرة من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وقد وصلوا إلى ما وراء أوروبا، وكان ذلك يؤدي بصورة مطلقة إلى تغيرات بارزة في توزيع السكان من الفجر حول العالم. وكانت القوة الحركية الرئيسية وراء هجرات الفجر خلال هذه الفترة القبائل الكبرى المكونة من الكالديراري واللافاري بالإضافة إلى بعض من ذوي الصلة بناطقي اللغة الرومانية من مولدافيا وفالاشيا، وقد حدثت موجة أخرى كبرى من الهجرة لجماعة الروداري - أو الوداري - المعروفة في وسط أوروبا وفي أماكن أخرى من العالم باسم «بيشي» ويتحدثون الرومانية ويظنون أنفسهم رومانين وليسوا غجراً.

وكانت الهجرات تتم بشكل رئيسي من الشرق إلى الغرب لكن جماعات الفجر المختلفة اتخذت طرقاً متعددة لتصل إلى مدى بعيد من الأراضي الأوربية بالإضافة إلى اشتراك جماعات صغرى من الفجر في عمليات الهجرة تلك، وبذلك تزيد أعداد المرتحلين فيزيد نمط الهجرة تعقيداً، وعلى سبيل المثال ظهرت عام ١٨٩٧م في ضواحي مدينة وارسو جماعة غجر من الجزائر وصلوا للمنطقة عن طريق القوقاز وروسيا ووصلت في السنة نفسها جماعات أخرى من الفجر من بغداد إلى ذات المدينة ثم غادروها بعد قليل إلى جهة غير معلومة.

يمر طريق هجرة الفجر الرئيسية من مولدافيا وفالاشيا عبر ترانسلفانيا ثم ينفصل إلى طريقين فرعيين، إذ يمضي الطريق الأول باتجاه الشمال الشرقي عابراً المجر وبولندا حيث يلتقي المهاجرون بقبائل ذات قرابة من الذين اتخذوا الطريق الشرقي ووصلوا الآن إلى روسيا وقد بقي بعضهم في بولندا والمجر في حين ارتد الآخرون غرباً بطريق ألمانيا وهولندا حتى وصلوا لفرنسا وبريطانيا العظمى وأسبانيا، ومر الطريق الثاني ببلاد البلقان وإيطاليا - حيث استقر بعض الفجر مرة ثانية - ثم وصلوا لفرنسا وبريطانيا العظمى ثم إسبانيا، وكانت هذه البلدان الثلاثة مكاناً شائعاً للقاء جماعات الفجر الذين يصلون هناك بواسطة طريق من الطرق المذكورة، ثم يتوجهون في جماعات إلى أستراليا وكندا وأمريكا اللاتينية وجنوب أفريقيا والولايات المتحدة الأمريكية. وعبر أحقاب عديدة متلاحقة وهم يشقون طريقهم عبر عدد من الأراضي الجديدة، استقر الفجر في كل قارة، وقد استخدموا ليس فقط أساليبهم التقليدية في الترحال والانتقال وإنما استخدموا وسائل جديدة في التنقل والتحرك من منجزات العصر مثل القطار والقوارب.

وبهذا بزغت صورة جديدة مختلفة تماماً لمجتمعات الفجر حول العالم، صورة استكملت ملامحها النهائية في الفترة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية.

الفصل الخامس

نهاية الإمبراطورية العثمانية

بعد ثورة تركيا الفتاة عام ١٩٠٨ تم تقييد سلطات أسرة السلطان في الإمبراطورية العثمانية بصورة ملحوظة، واتخذت البلاد طريق الإصلاح السياسي الذي لم يؤت ثماره مبكراً، وقد عانت الإمبراطورية من كارثتها الثانية خلال الحرب العالمية الأولى. فباعتبارها ضمن الجانب الخاسر ونتيجة لمعاهدة سيفر ١٩٢٠م كان عليها أن تتحمل فقد العديد من الأراضي، وبعد الحرب اليونانية التركية ١٩٢١ - ١٩٢٢م والتي انتهت بمعاهدة السلام في لوزان، وضع مصطفى كمال قائد الدولة الجديد والمعروف باسم أتاتورك نهاية للإمبراطورية بشكل حاسم وبدأ يبني مكانها دولة عثمانية جديدة لتركيا، وبعد فترة احتضار طويلة، بدت النهاية الرسمية - حقيقة - لإمبراطورية عثمانية كانت ذات يوم عظيمة.

وهذه التغيرات النهائية انعكست على مصير الفجر الذين مازالوا باقين ضمن حدود الإمبراطورية وداخل ولاياتها التي خضعت لها ذات مرة في البلقان، وبعد نهاية الحرب العالمية الأولى قام بعض فجر منطقة شرق ثراس - ليس المسيحيون منهم فقط بل والمسلمون كذلك -، بالانتقال إلى بلغاريا الغربية، إذ كانت هجرات الفجر تزداد حجماً حتى بعد توقيع معاهدة لوزان، ووفقاً لمواد المعاهدة التي أوجبت حدوث تبادل للسكان بين تركيا واليونان، كان على الأتراك في الأراضي اليونانية أن ينتقلوا إلى تركيا، بينما كان على اليونانيين في تركيا - وهم أساساً من الجزء الآسيوي من الدولة - أن ينتقلوا إلى اليونان.

وقد انزاح كثير من الغجر وسط تلك الحركة السكانية، فهاجروا إلى كلا الجانبين، وبذلك دخلوا أراضي جديدة رغم أن بعض المسلمين ظلوا باليونان ونتيجة لتلك التغيرات ظل الغجر باقين بشكل دائم ضمن الحدود الجديدة لولايات البلقان ذات الأمة الواحدة.

ومنذ ذلك الحين فصاعداً، أضحي المصير التاريخي للغجر وتطور وجودهم كجماعات اجتماعية متداخلاً في أنسجة غالبية السكان لتلك البلدان؛ وقد انطلقت كل ولاية من البلقان في طريقها الخاص، تقوم بتجربة تطور نظمها السياسية والاقتصادية المتعددة بالإضافة لتوجهات حكومية مختلفة تجاه الغجر، وقد بقي إرث الإمبراطورية العثمانية - على أي حال - قائماً بأشكال متنوعة، سواء في صورة الثقافات العرقية الموجودة مثل ثقافة الإسلام والعادات المتعلقة به والتقاليد التي ورثها عدد كبير من الغجر في بلاد البلقان، أو في صورة تأثير التقاليد التاريخية والثقافية للعثمانيين الذي مازال راسخاً في حياة أفراد الولاية البلقانية. أما الحروب والتغيرات المتكررة للحدود فقد تواصلت حتى اليوم، وأبرز مثال حاضر هو تفكك يوغسلافيا وتكوين دولة جديدة، وكان لكل هذا تأثير ما على الغجر ودفعهم لهجرات جديدة.

٥-١ رعب كوسوفو... التركية العثمانية

كانت حالة الغجر - دائماً - في البلقان هي حالة الدخيل على المجتمع كما وضح في هذه الدراسة، سواء ولدوا مسلمين أو مسيحيين، مُرتدين أو

متكرري الارتداد إذ لم يقبلهم رجال الدين أو أي من أصحاب العقيدتين^(١) وقد دعمت الدولة العثمانية ذلك بما فرضته على الفجر كحالة قانونية وضريبية خاصة، مواصلة بذلك - كاحتمال - ممارسات كانت قائمة في الدولة البيزنطية.

كان التقدير يوجه للفجر لمهارتهم في الجيش وفي العزف الموسيقي لكنهم نادراً ما احتلوا مناصب رسمية، إذ أظهرت الصفحات السابقة أن الفجر كأفراد آخر قبل أيام رفاهية الدولة، أبعد ما يكونون عن الكسل وكان عليهم أن يعملوا ليكتسبوا عيشهم من بدو متنقلين باعوا الحليب لفلاحى القرى إلى عمال المناجم في البوسنة وفالاشيا. وكان أولئك المسمون رؤساء الفجر أو جامعوا الضريبة نادراً ما يعينون من داخل الجماعة، وحل بهم نذيرٌ شرٍ بحدوث مذبحة كوبريف شتيتسا للمسلمين الفجر.

حيث نظر الأهالي في بلغاريا إلى كل رجل وامرأة وطفل من الفجر كمشاركين في الحكم التركي المتعسف، فأحرقوا منازل الفجر لدفعهم إلى إخلاء القرى في الربيع، وقد رأينا أحداثاً مشابهة في رومانيا مع نهاية القرن العشرين وسط الصراع على الأراضي المقرر خصصتها. وتواصلت حالة الانعزال حتى القرن التاسع عشر، وخلال الحرب العالمية

1 - هذه ملحوظة غريبة فالإسلام لا يمنع أي إنسان من اعتناقه، لأي سبب كان عرقياً أو

اجتماعياً أو مادياً والإسلام يُبنى فقط على مجرد قبول أصوله الخمسة المعروفة . المترجم

الثانية قام الغزاة الألمان بقتل الفجر في صربيا ، ثم بواسطة الفاشستين الكروات في البوسنة وكرواتيا ، عندما نشب الصراع الحالي في البوسنة كان الفجر أول من تعرضوا «للتطهير العرقي» في بعض المناطق وفقاً لاصطلاح العصر الحديث ، وحدث ذلك عام ١٩٩٢م بعدما قامت قوات الناتو بغزو كوسوفو وأعيد اللاجئون الألبان للإقليم فانقلب اللاجئون على الفجر لأن قليلاً من هؤلاء أبدوا تعاوناً مع الحكام الصرب الجدد . فتم طرد آلاف منهم من كوسوفو التي كانت يوماً قلب الثقافة الرومانية «الفجرية» وقد عمل الأتراك على مبدأ «فرق تسد» مع كل رعاياهم وعندما سقطت الإمبراطورية انكمشت حدود الدولة مع اتفاقية برلين ١٨٧٨م تاركة بعضاً من الأقليات في كل دولة جديدة ، والبعض يقول إن تيتو وعد الفجر الرومانيين بدولتهم المستقلة لو قاتلوا بجانب مقاتليه ، لكن ذلك الوعد - إن كان قد قيل - لم يتم تنفيذه أبداً . فبينما يمكن للصربيين في كوسوفو أن ينظروا إلى مواطنيهم في صربيا كموئل للدعم التماسك ، ويمكن لبقايا اليهود في بريستينا الهجرة إلى إسرائيل ، نجد الرومانيين «الفجر» التائهين بلا وطن لا يستطيعون العودة إليه . وهكذا يتلصق الإرث العثماني طويلاً على معاناة الفجر في يوغسلافيا اليوم .

ثبت بالأسماء والمصطلحات

أكشر	عملة فضية
أراش	متمرد - ثوري
أراشليا / أراكليا	جامع الضرائب
أسبر	عملة محلية
باكشيش	بقشيش، إكرامية
بادهوف / باديفا	عقوبة / جزائر
باشوزق	معدات مسلحة - غير منتظمة
بدل الأسكري	بدل العسكرية - بدل التجنيد
بدل النزول	ضريبة السكن - العقار
بيه / بيليري	بك - سنجق - حاكم
بير بيليك	ولاية - إيالة - مقاطعة - صغيرة
بيليربيه	ما فوق البك - أدنى من الباشا
قادي	قاضي - مسؤول قانوني
قاديليك	منطقة تطبيق القضاء
شيرى باش	جامع ضرائب المزارعين
شيفليك	مزرعة
ديفشيرم	قرابة الدم - خدمة تجنيد للمسيحيين
جيزيند	رُحل
جروت	عملة فضية كبيرة الحجم
هايروك	قاطع طريق
هايروتين	متمرد - ثوري
إيسبنشي / جيزي	جزية
جامباز	تاجر خيول
جانيساري	الانكشارية
جيماعت	جماعة

مسؤول الضرائب بالجماعة من الغجر	جيماعت باش
غرامة - جناية	جيريوم جينايت
ضريبة	كاشكون
وكيل	كافتان لوك
قائم مقام	كايم مقام
جماعة من الغجر الرحل	كاتون
عمدة / منتخب لقرية	كيهاي / كيتودا
كمان / آلة موسيقية	كيمان
عيد الأضحى	كوربان بيرام
قرية	كوى
رسم في أول ليلة الزواج	كروفينيا
إقليم / سنجقية	ليفا
محلة / حي	محلة
قائد	ميريل
قائد عام	ميرليفا / ميرليفاش
ضابط كبير	ميرميران
رجل بلاط / نبيل	موتافاريك
أراضي للسلطان	ميولك
أرض / مقاطعة لها قاض	تاهيا
مجموعة - انكشارية	أودا
مجموعة إمداد الأفراد للجيش	أوجاف
ضريبة	بوريز
غفير / حارس	بودار
عامل مياومة	راتاس
الرعايا / الرعية في غير المسلمين	رعاية
رسم زواج / ضريبة عرس	رسمي أروش

رسمى يشفت	ضريبة الأرض للمسلمين
رسمى - ى - فلورس	ضريبة الأسرة
سنجق	سنجقية / إقليم أصغر من الولاية
ساري جماعة	رئيس جماعة - تدفع الضريبة
ساري عسكر	رئيس جماعة جنود
سباهي	الضابط له خراج السلطان من أرض خاصة
تيريت	ضريبة
تيمار	أرض خصصت لأرستقراطية عسكرية
تيموريوت	لضابط المسؤول عن إحدى أراضي التيمار
فاكوف	أرض أوقاف لأعمال الدين
فاتراشي	قن الأرض
فالي	والي
فيلایت	ولاية
فيزير	وزير
فوي نوك	جندي
ياماك	وحدة عسكرية معاونة
يوبا	ضريبة
زايم	زعيم عسكري / قائد عسكري يشرف على
زامام	
زابتي	فصيلة
زياميت	زامام / أرض هبة لكبار الدولة



كتاب العربية

الترجمة (٢)